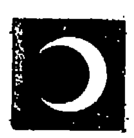


بقلم:

فتحي غانم

دار الهلال



روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

الفصل الأول

لا ادري كيف بدأ اهتمامي به ، ولكني عندما أفكر في الامر أكاد اجزم بأني أنا الذى سعيت اليه ، رغم أنى نصحت نفسى بالحذر منه ، فقد توهمت أنه قد يكون نصابا ، أو جاسوسا جاء ليتجسس علينا ، أو لعله أحد رجال المخابرات أو المباحث دخل النادى ليتتبع أخبار الاعضاء .. ومن بينهم كثيرون ، كانت لهم يوما ما علاقات بالسلطة ، واشتركوا فى صراعات قديمة حولها .. ولكن رغم كل هذه الظنون ، وربما بسببها ، دفعتنى غريزتى الى الاقتراب منه ، فليست الفراشة وحدها هى التى تحوم حول النار التى تحرقها .. انك تجد نفسك مندفعا نحو هذا الذى تحذر منه أو تخشاه بقوى مجهولة اكبر واقوى من أية مقاومة يجندها العقل .

لن اذكر اسمه الحقيقى ، ولن أجهد نفسى فى البحث عن اسم مستعار له ، وهو نفسه استطاع ببساطة تامة أن يجعل الجميع ينادونه باسم من حرفين ومقطع واحد ، هو « تو » بضم التاء والواو .. « أهلا تو » ، « تعال يا تو » ، « كنت فين يا تو » .. وقد يستنتج البعض من ذلك أن أسمه الحقيقى « توفيق » أو « توكل » أو « تونى » الخ .. ولكنه استنتاج غير مضمون ولا معنى له . كذلك لن أذكر اسم النادى الخاص ، يكفى أن نعرف عنه حقيقتين ، الاولى أنه فى الاسكندرية ، والثانية ان أبرز نشاط لاعضاء هذا النادى هو لعب البريدج ، وهم فخورون باللعبة ، ويقولون لك فى زهو وكبرياء أن من بينهم خرج ابطال عالميون فى البريدج .. وعندما انضممت الى ذلك النادى منذ سنوات قليلة حاولت أن أقنعهم بمزايا الشطرنج « لعبتى المفضلة » ولكنهم لم يقتنعوا بما أقول . وكان « تو » أحد الذين قبلوا فى البداية أن يلعبوا معى الشطرنج ، ومازلت أذكر المناسبة جيدا فقد كانت احدى محاولاتى غير الحذرة للاقتراب منه . فانتهزت فرصة وجودنا مبكرين فى النادى وحدثته عن الشطرنج ، فاستمع الى ، ثم لمعت عيناه فجأة وقال :

ـ أريد أن العب معك .
فسألته متحديا :
ـ أتجيد اللعب .
أجاب :
ـ لا أدرى .. ولكني استطيع ان أجيدها اذا أردت في وقت قصير جدا ..
فضحكت قائلا :
ـ أشك في ذلك .. الا اذا كانت لديك مواهب نادرة .
فقال في لهجة حاسمة ، تخلو رغم ذلك من الوقاحة المتوقعة في كلمات التفاخر والزهو بالنفس :

ـ أنا فعلا لى مواهب كثيرة .
وجلسنا نلعب الشطرنج ، وأعترف أنه كان موهوبا حقا .. لا لأنه غلبني ، ولكن لانه أدرك بسرعة ـ وهذا شيء نادر بين من اعرفهم في جيلنا من الرجال ـ أنه يحتاج الى بذل جهد غير عادي ليجيد اللعبة ، واتخذ قراره في الحال ، رافضا أن يسقط في هوة العناد كما يفعل في العادة من يهزمون في اية لعبة :
ـ لا .. هذه لعبة صعبة فعلا .. والطريقة التى تلعب بها تبين ذلك .. أنا لن العبها الا اذا كانت هى الشيء الوحيد المتبقى لى .
قلت متحديا :
ـ منذ نصف ساعة فقط .. كنت تتحدث عن مواهبك .
أجاب بسرعة :
ـ فعلا أستطيع أن اجيد الشطرنج . ولكن ليس هذا هو ماأريده الان .

ثم أضاف باسما :

ـ ان الذى جذب انتباهى الى الشطرنج .. هو حكاية « كش‌مات» . لاشك انى أكون مسرورا عندما اقول لخصمى « كش مات » .
كانت عيناه تضحكان وهو يسألنى ما اذا كان هذا هو رأيى أيضا ، وخطر لى فى تلك اللحظة أن أسأل عما اذا كان له خصوم يكرههم الى هذا الحد ، بحيث يريد أن يقتلهم ، أو يتمنى موتهم ، ولكنى لم أجرؤ على سؤاله ، فقد شعرت أن ما بينى وبينه لا يسمح لى بأن أتطرق معه فى الحديث عن أسرار حياته ، واكتفيت بأن قلت لنفسى ان «تو»

يفرح لموت الخصم ، وحمدت الله انى لست ذلك الخصم الذى يريد له الموت .

ووجدتنى اقول له :

ــ لعلك لا تحتاج الى رقعة شطرنج لتقول كش مات .

وهنا تغير وجهه ، واختفت الابتسامة تماما ، ورشقنى بنظرة طويلة ، قبل أن ينهض فجأة ، ليلحق ببعض الشبان ليلعب معهم البريدج .

كان وجود الشبان بهذه الكثرة فى نادينا ، وفى صالة البريدج بالذات ، ظاهرة جديدة علينا ، تضايق الاعضاء المسنين والمحالين على المعاش ، وبينهم مرضى القلب والذبحة الصدرية ، الذين لا يستطيعون ممارسة أى شيء آخر فى الحياة ، غير لعب البريدج ساعتين فى اليوم ، والانغماس فى مغامرة المكسب والخسارة ، والفرح برؤية الخصم وهو يضع يده فى جيبه ويخرج محفظته ويفتحها بأصابع مرتعشة من الغيظ والانفعال ليخرج منها خمسين قرشا أو جنيها يدفعها للمنتصر . وبالاضافة الى هذه المغامرة الصغيرة كانوا يتمتعون فيما بينهم بتبادل الشتائم والتشنيعات بنفس الاسلوب الذى كانوا يتبادلون به مثل هذه الاشياء منذ اربعين عاما أو أكثر عندما كانوا طلبة فى الجامعة او الثانوى ، وكان وجود السيدات المتقدمات فى السن لا يحرجهم ، وان كان يخفف بعض الشىء من الكلمات المبتذلة أو الجارحة ، انها متعتهم الوحيدة ، أو حريتهم الوحيدة المتبقية بعد الشوط المنهك الطويل الذى قطعوه فى رحلة الحياة ، وكان أبرزهم فى سلاطة اللسان لواء شرطة متقاعد ، كان يتلفت حوله ثم يهتف بفرح « النسوان موش موجودين ياولاد » ثم يطلق سيلا من الكلمات البذيئة ، يكررها فى تلذذ ونهم . ويردد الكلمات والتأوهات الجنسية فى تكرار متنغم نشوان كانه مجذوب فى حلقة ذكر . وكان بين الحاضرين من الكهول من يخجل أو يفزع ، ولكن متعتهم بما يسمعونه كانت دائما أقوى من الخجل أو الفزع . وتسمع أكثر من واحد يقول « اللواء زهدى بك مصيبة ولكن دمه خفيف » .. ولكن الشبان ــ الاولاد الحقيقيين ــ ظهروا وتكاثروا وبدا اللاعبون يهتمون لغير سبب مفهوم بلعب البريدج . وفرضوا بوجودهم غير المرغوب فيه نوعا من الوقار على الكهول اذ كيف يتبادل الكبار الشتائم ويتلذذون بالالفاظ الفاضحة ، امام أولادهم ، أو أولاد اشقائهم .. وحاول بعض

اعضاء النادى استصدار لائحة جديدة تمنع « الأولاد » من دخول صالة البريدج . وجلسوا يتحدثون عن السن المناسبة لدخول الصالة .. فوق الثامنة عشرة .. لا .. فوق الواحد والعشرين . حتى صاح فيهم أحدهم منبها الى أن هؤلاء الذين تقولون عنهم أولاد ، بينهم متزوجون ، أعمارهم بلغت الثلاثين ، فصمتوا واجمين حتى صاح « رءوف علي » أحد مديرى البنوك القدامى ، وقد أصيب بالذبحة مرتين :

ـ ولماذا لا يلعبون التنس أو الباسكت لماذا لا يتركوننا ننعم بالراحة والهدوء .. الواحد منا عندما كان فى مثل شبابهم ، كان لا يطيق ان يضيع وقته فى صالة بريدج .. هذا حرام .

وقد تأثر بهذا الكلام « شكرى منصور » وهو سفير سابق ، متزمت شديد الوقار فى مظهره الخارجى ، ولكنه ينقلب الى النقيض عندما يخلو المكان لاصدقائه الكهول وحدهم .. فيستمع الى تأوهات اللواء زهدى فى نشوة ، ويصيح بملء فمه « انا أحب الهلس » .. والذى حدث هو ان السفير شكرى ذهب الى مائدة بريدج يجلس اليها ابنه « يسرى » مع بعض اصحابه ، وألقى عليهم محاضرة فى خطأ وجودهم فى هذا المكان ، ونظر يسرى ، وهو مهندس تخرج حديثا الى والده ، وقال فى هدوء قاتل :

ـ يابابا لا تعطلنا .. اذهب واجلس مع أصحابك .

فانفجر الاب صارخا :

ـ انا .. او انت فى هذا النادى .

وهنا حاول أحد أصحاب يسرى أن ينهض قائلا ليسرى فى ارتباك .

ـ لا داعى يايسرى .

ولكنه لم يكمل ، اذ خاطبه يسرى بلهجة قاطعة :

ـ اجلس انت .. ولا تتدخل بينى وبين هذا الرجل .

واستدار شكرى منصور ، ولم يعد الى جلسة أصحابه ، بل اتجه مباشرة الى الباب ، وخرج من النادى ولم يعد اليه حتى الآن .. وعقد جلسة بريدج خاصة فى بيته ، تردد عليها البعض لفترة قصيرة ، ثم سلموا ، وعادوا الى النادى فزعين ، وقد شاع بينهم خوف مبالغ فيه من هؤلاء الشبان ، أولادهم أو أحفادهم ، وكانوا يتهامسون فيما بينهم من خطورة الاولاد وضراوتهم . حتى سرت بينهم اشاعة لا أدرى

من هو مصدرها ، تفسر انقطاع « شكرى منصور » عن النادى بحكاية غريبة تقول ان الاب احتك بابنه فى البيت مرة أخرى ، فتجرأ الولد وضرب أباه ضربا مبرحا ، اضطره الى الاستنجاد بشرطة النجدة . وأن « يسرى » قد هدد آباه بأنه سوف يضربه مرة أخرى لو رآه يذهب الى النادى أو يتردد على صالة البريدج . والرواية كلها غير معقولة ، ولكن ألسنتهم تناقلتها ، لتصور مافى نفوسهم من خوف ولا أقول كراهية للشباب حتى أنهم أصبحوا يخشون أن يحرمهم الاولاد من دخول النادى .

ولكن — تو — مقبول من الجميع ، فى كلا المعسكرين ، الكهول والشباب ، رغم أنه شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين . وكانت أول مرة رأيت فيها « تو » فى صالة « البريدج » منذ حوالى العام ، وأول ماجذب انتباهى الى وجوده هو صوته ، فقد ارتفع فجأة صوت سريع عصبى تتزاحم فيه الكلمات بطريقة غير عادية ، وكنت اجلس الى جوار رءوف على يحدثنى عن ذكرياته فى السودان عندما قطع سرده ، ملتفتا الى مصدر الصوت وزعق :

— خفض صوتك يا « تو » لست وحدك هنا .

فالتفت اليه « تو » باسما وقال معتذرا :

— حاضر يا رءوف بك .. لا تغضب .. لكن ..

وانطلق « تو » يشرح من مكانه البعيد كيف أن زميله اخطأ فى اللعب .. فقاطعه رءوف يائسا :

— اسكت يا اخى .. وجعت دماغى .

وسكت « تو » بعد ان قال وهو يبتسم :

— حاضر .

تأملت « تو » فى دهشة : شاب متوسط القامة ، ممتلىء قليلا ، رأسه ضخم ، يرتدى القميص الملون والبنطلون الشارلستون ، فى شكله بعض البهدلة ، وشعره الاسود الغزير منكوش فوق رأسه ، شأن أغلب شباب النادى الذين يقلدون مايرونه فى الافلام وصور المجلات لشباب العالم فى هذه الايام .

قلت لرءوف معلقا :

— ألشباب له أحكام .

فقال هامسا :

هذه قلة أدب .

قلت :
ـ ولكن هذا هو الشباب .
قال وهو يقترب منى براسه كانه يهمس بسر :
ـ هذا الولد الصايع لا عمل له هنا .
واضاف الى معلوماتى ماشد انتباهى الى « تو » .. قال لى أنه ليس عضوا فى النادى ، وانه يدعى انه طالب فى السنة النهائيـة بكلية الزراعة ، وانه رغم ذلك يأتى الى النادى كل يوم فى الصـباح حتى المساء ولا عمل له الا ان يلعب مع أولاد الاعضاء ويكسب منهم .
فسألته :
ـ أهو من الشبان الذين يقولون عنهم أنهم عاطلون بالوراثة .
قال :
ـ بالعكس .. انه فقير غلبان .
فسألته فى دهشة :
ـ وكيف دخل هنا .
قال لى مؤكدا :
ـ سوف نجتمع ونقرر طرده ومنعه نهائيا من دخول النادى .
قلت :
ـ وما الذى يمنع من طرده الان ..
همس :
ـ يبدو أنه على صلة باللواء زهدى ، ويقال انه قريب له .. على أية حال سوف نتفاهم معه قبل أن نتخذ قرارنا . وحدث أنى تركت الاسكندرية لبعض الوقت .. ونسيت كل شىء عن « تو » حتى عدت الى النادى بعد أكثر من شهر ، لافاجأ بوجود «تو» ، وقال لى رءوف بلهجة متفلسفة :

ـ لقد تصرفنا كالمجانين .. وقررنا تعيين « تو » فى النـادى ، لقد كانت حكايته هى شغلنا الشاغل اثناء غيابك ، كانت فرصـة لممارسة سلطاتنا التى افتقدناها فى التعيين والرفت ، فقررنا أولا طرده والتنبيه على سعد المراقب بمنعه من الدخول حتى لو كان مع أحد أولاد الاعضاء .. وبعد أن اتخذنا القرار ، ارتفع أكثر من صوت يقول : حرام .. يجب أن نساعده .. أو نبحث له عن وظيفة .. وطبعا كان وراء هذه الاصوات اللواء زهدى ، فقررنا تعيينه معاونا لصالة البريدج ، يشرف على نظافتها وعلى أوراق اللعب ونحجز

الموائد وكل هذه الامور .
سألته :
ـ ومتى حدث هذا .
قال :
ـ منذ يومين فقط .
ثم أضاف ساخرا :
ـ المهم أننا مارسنا سلطاتنا القديمة وشعرنا بأننا قادرون على التعيين والرفت .
وهنا خطر لى ذلك الخاطر المفزع فهمست :
ـ ولكن الامر مريب .
فنظر الى بعينين فيهما دهاء الكهول وسألنى :
ـ ما الذى يريبك .
همست :
ـ ان تعيينه .. ليس مفهوما .. كذلك مجيئه الى النادى أول الامر .. لقد خطر لى وأنت تحدثنى الان .. انه قد يكون فى الامر شىء .
فضاقت عيناه وقال باسما :
ـ طبعا .. لقد خطر لنا جميعا نفس الشىء .
قلت :
ـ قد يكون جاسوسا علينا .
فقاطعنى بلهجة تأكيد :
ـ أنا واثق أنه من المخابرات .
فسألته مترددا :
ـ كيف تجزم بشىء كهذا .
قال وهو يتلفت حوله :
ـ لست فى حاجة الى أن أجزم .. ان هذا هو شعورنا جميعا .. فبمجرد أن طرح اللواء زهدى فكرة تعيينه .. تهامسنا بأنه مطلوب تعيينه لهذا الغرض .
قلت :
ـ ولكن زهدى على المعاش .
فأجاب وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة :
ـ أمثال هؤلاء لايتركون الخدمة حتى الموت .. لابد ان له دورا

فى عمليات المخابرات أو المباحث .. هذا شأنهم جميعا .
وعدت انظر فى اتجاه « تو » وفى صدرى مشاعر مختلفة مـن الفضول والحذر ، وأنا أحاول ان أجد فى مظهره ماينبئنى عن حقيقة مخبره ، وان كنت أعلم ان مثل هذه المحاولة ميئوس منها ، وجعلت افكر فى هذا الوضع الشاذ الذى يتعرض اليه « تو » ويقبله ، فهاهو يبدو ، أو يتظاهر ، وكأنه احد الاعضاء ، وهاهو يختلط بالشـبان الذين هم من طبقة اجتماعية أخرى غير طبقته ، ومع ذلك فالجميع يعرفون حقيقة وضعه .. وهو أنه ليس منهم .. وأنه ليس عضوا ، بل موظفا وأجيرا عندهم .. هل مثل هذا الوضع الغريب يصلح لرجل مخابرات ؟ لا اظن . ومع ذلك فالامر غير مفهوم تماما ، اذ لماذا يقبل « تو » هذا الوضع ، وهل هو مضطر اليه ، أو هو يتعمد أن يـكون كذلك لغرض فى نفسه ، وخطر لى أنى ربما اكون قد ظلمته بهـذه الهواجس ، فقد يكون واحداً من ذلك الشباب الغريب الذى لانستطيع أن نفهمه نحن أبناء الاجيال الماضية ، لعله واحد من تلك الطيـــور الغريبة التى تشق طريقها فى الحياة بوسائلها الخاصة المبتكرة التى لا تخطر على بال امثالنا .. أتكون الحياة قد دفعت به الى هذا المكان كمحطة يستريح فيها بعض الوقت ، قبل أن يطير الى مكان آخــر يحط فيه . حقا ان هذا النادى اشبه بالمحطة ، بعض من فيه كهول ينتظرون القطار المسافر الى الحياة الاخرى ؛ وبعض من فيه شـباب يتسكع فى أنتظار قطار مسافر الى فرص أوسع فى الحياة . على أية حال ، قررت بينى وبين نفسى ان احذر من تو ، وأن اتعامل معه بحرص اذا شاءت الظروف أن نلتقى ولابد ان هذه الظروف سوف تتهيأ يوما ما ، مادام كلانا يواظب على التردد على هذا النادى . ورغم حذرى وهواجسى وجدتنى أتتبعه بعينى ، واكتشفت أنى أراقب كل صلة بينه وبين اللواء زهدى ، ولاحظت أن زهدى لايتحرج فى أخذ حريته وممارسة هوايته فى ترديد التأوهات والكلمات البذيئة أمام « تو » رغم أنه لا يفعل ذلك امام الشبان الاخرين .. فزهدى لايشعر بحرج أمام « تو » ويعامله بكل تأكيد من مركز سلطة . وهو مايعنى أن هناك علاقة ما بينهما .

وذات مرة ، وجدتنى ابتسم فى وجه « تو » الذى اقبـــل على يحيينى مرددا اسمى كأنه يعرفنى منذ زمن بعيد ، وسألنى عن رأيى فى نظافة المكان ، وحدثنى عن اقتراحه بتغيير نظام موائد اللعب ،

وفقدت كل حذري فسألته :
ـ هل انت طالب في كلية الزراعة .
فأجاب على الفور :
ـ نعم .
ثم أضاف بلهجة جعلتني أجزم بأنه لا صلة له بالزراعة أو كلية الزراعة ، ان التعليم الجامعي لا فائدة منه .. وأنه لايحبه ، ثم سألني عما اذا كنت أعرف أحد مديري فندق فلسطين ، فأجبته بالنفي ، فقال انه ذاهب الى هناك غداً ليلحق بالعمل هناك .. ثم عاد وصحح ماقاله ، بانه ذاهب في امتحان للوظيفة ، وأن له خالاً ذا نفوذ قد اوصى عليه ، ولم يذكر لي اسم خاله ، وانطلق يتحدث بسرعة مضاعفة وبلهجة غلبها الانفعال عن مواهبه . وأجادته لثلاث لغات هي الانجليزية والفرنسية والايطالية ، وانه يستطيع أن يعمل في العلاقات العامة في الفنادق ..
وقاطعته في هدوء ، مخفيا تشككي في صدق كلامه :
ـ ارجو ان تفلح .
فقال في حدة غير مفهومة وقد تحولت كلماته الى ما يشبه اللعثمة :
ـ كل شيء اتجه اليه .. كل عمل ارغب فيه تقف دونه العقبات .. ولكني على أي حال مصمم على العمل هناك .. واذا لم انجح في فلسطين فسأسافر الى القاهرة وأعمل في شيراتون او الهيلتون ..
قلت وانا أتحصن بالكلام في العموميات :
ـ أنا واثق ان اصرارك هذا سوف يجعلك تحقق كل ماتريد ..
قال في حماس اقرب الى انفعال لا يستطيع السيطرة عليه :
ـ ان الصعاب لن تمنعني .. انا عندي مواهب .. ولابد أن اشق طريقي وأصل .
خيل الي في تلك اللحظة ، انه أشبه بممثل رديء ، فقد راودني احساس غامض ولكنه قوي ، بانه يريد أن يخدعني وانه غير صادق بالمرة فيما يقول ، وان هناك مايخفيه عني .
ومع ذلك ، لم يبدر منه مايدل على أنه يريد أن يخدعني أنا بالذات فأنا الذي كنت أندفع نحوه ، بينما هو مشغول عني ، حتى شجعت نفسي على الاعتقاد بأنه يتعمد الابتعاد عني لسبب ما أجهله تماما .. ولاشك أن هذا البعد كان كفيلاً بأن يثير الطمأنينة في نفسي ، فالافضل

ـ منطقيا ـ أن اشعر بانى لست محل اهتمام هذا النصاب ، أو الجاسوس أو رجل المخابرات ، او ايا كان هو .. ولكن من قال ان النفس البشرية ترضى بمثل هذه الطمانينة .. ان نفوسنا تقلق من اى ابتعاد عنها ، حتى ولو كان هذا الذى يبتعد مصدرا للخطر .

ولعل هذا هو الذى دفعنى الى أن اتهور ذات مساء ، وبغير سابق تدبير ، فانتهز فرصة خروجى مع اللواء زهدى من النادى ، وقبل ان يتركنى ليدخل سيارته ، اذا بالسؤال يخرج من فمى ليفاجئنى قبل أن يفاجيء زهدى :

ـ ماهى حكاية « تو » يازهدى بك .

ونظر اللواء زهدى الى نظرة طويلة غريبة . كانت عيناه تفحصاننى فى دهشة قبل ان يسألنى بصوت يحاول ان يكتم انفعاله :

ـ لماذا تسألنى هذا السؤال .

قلت مندفعا وقد فات أوان التراجع :

ـ انه يبدو لى مريبا .

فصاح اللواء زهدى محذرا وبلهجة خيل الى أن فيهـا شـعورا بالالم .

ـ لا تجلب المتاعب بدون مبرر .

قلت :

ـ المتاعب لمن ؟

قلتها فى حدة ، وقد ظننت أنى قد ظفرت أخيرا بشجاعتى ، وانى على وشك ان أصل الى ما أريد من طمأنينة حقيقية ، اعنى طمأنينة الفهم . وبدا لى أن زهدى يوشك ان يتكلم .. كان ينظر الى وكأنه ينظر الى مجهول .

ولكن يبدو أنى أقدمت على تصرف غبى فى هذه اللحظة ، فقبـل أن ينطلق زهدى بكلمة ، تعجلته قائلا :

ـ فى الحقيقة انا لا أفهم شيئا .

وكان ماقلته قد جعل زهدى يفيق ويتيقظ فاذا بالحيوية تدب فيه فجأة ، ويضحك ساخرا ويقول :

ـ هل أخذت كلامى على محمل الجد .

قلت فى اصرار لا يخلو من غيظ :

ـ لن تتراجع الان .. لقد حدثتنى عن المتاعب التى يجلبهـا سؤالى .

فثبت نظراته فى عينى ، وقال وهو يضحك ضحكة جافة :
ـ وأى متاعب يستطيع أن يجلبها هذا الولد .. انه لاشىء على الاطلاق .
ثم أضاف بلهجة يصطنع بها اهتماما كاذبا :
ـ هل ضايقك فى شىء .
قلت بسرعة وقد عاودنى شعورى بالحذر :
ـ أبدا .. أبدا ..
فمد يده يصافحنى .. متمتما بكلمات اعتذار مقتضبة عن اضطراره للانصراف فى الحال .. وركب سيارته وانطلق بها .

الفصل الثاني

استبد بي الفضول ، فدفعني الى محاولة الاقتراب من مجموعة الشبان الذين يلعبون البريدج مع تو . ولم أجد صعوبة في ذلك ، فاغلبهم قد قرأ لي رواية ، او سمع عني ، وقد يسألني احدهم سؤالا أو سؤالين عن الادب أو اخبار الصحافة . ولكني ما أكاد أفتح فمي لأجيب ، حتى أشعر بأن صاحب السؤال غير مهتم بما أقول فهو مشغول تماما بأشياء أخرى غير التي أحدثه عنها ، وسرعان ماأكتشفت أن الصلة الحقيقية التي يمكنني ان أعقدها مع هؤلاء الشبان ، لن تعتمد على حديث الفن والثقافة ، بل تعتمد أساسا على سيارتي الايطالية السريعة ، من طراز « الفاروميو » . فكنت أتعمد الانطلاق بها مسرعا لاجذب انتباههم الى سرعتها غير العادية وبالتالي أكسب اهتماما أكبر بي . وهذا هو ماحدث فعلا . فذات ليلة ، كانوا قد اتفقوا على قضاء السهرة في بيت صديق لهم لا أعرفه ، وكانوا في حاجة الى سيارة ثانية لتنقلهم الى بيت ذلك الصديق في « رشدي » وبينما هم يتناقشون في حدة .. حول من يركب سيارة « لطفي » وهو محام تحت التمرين يعمل في مكتب ابيه المحامي المشهور بالاسكندرية ، ومن منهم يركب التاكسي ، اذا بي انتهز الفرصة ، وأعلن لهم أني على استعداد لان أقدم لهم خدماتي . ورحبوا بهذا العرض ، وتحمسوا لركوب الالفا روميو ماعدا « تو » الذي ظل ساكتا ، بل كان اقرب الى الوجوم ، أو هكذا خيل الي ، وعندما هبطنا الى الشارع ، ذهب « تو » من تلقاء نفسه الى سيارة « لطفي » الفولكس ، وظل واقفا بجوارها ، كأنه امر مسلم به انه سيركب تلك السيارة ، وانه لايعنيه في قليل أو كثير أن يركب معي . وراقبته من خلف زجاج سيارتي وهو ينحشر بين اثنين في المقعد الخلفي للفولكس ، ولا يحاول أن يلتفت ولو مرة واحدة ناحيتنا .

وما كدنا نتحرك ، حتى اندفعت « الفولكس » بسرعة غير عادية ، وبذلك أعلن لطفي أنه يتحدى سرعة عربتي . ولو كان ذلك قد حدث في أي ظرف آخر ، لكنت ابتسمت ، وقلت لنفسي ، هذا طيش عيال ولكن الظرف الان مختلف ، فكل مابيني وبين هؤلاء الشبان من صلة ،

لا يعتمد على احترام السن ، أو مايمكن أن أسميه بمكانتي الادبية الى آخر هذا الكلام الذى لا يعنيهم فى شىء . ان المبرر الوحيد لوجود صلة معقولة بيني وبينهم ، هى فى قدرتى على الانطلاق بماكينة الالفا روميو بطريقة باهرة تجعلهم يحترموننى بالقدر الكافى . انها لوثة أصابتنى وجعلتنى أفكر على هذا النحو ، ولاشك أن بعضا من طيش الهيال قد أصابنى ، بعد أن سعيت الى التعامل معهم ، والتصرف عليهم ، وعلى أية حال فقد اندفعت فى سباق جنونى فى طريق الحرية ، والفولكس اللعينة ، تستفيد من حجمها الصغير ، وقدرتها على التسلل والافلات من محاصرة السيارات والاتوبيسات وعربات النقل بينما اعتمدت على وقفات اشارات المرور ، وقدرتى على الاندفاع بسرعة مائة كيلو بالحركة الاولى للسيارة ، وكنا على وشك ان نسبق الفولكس عند مستشفى المواساه ، عندما سمعتهم يصيحون فى انفعال :

ــ تو يضرب لطفي كأنه جوكى .

فهتفت فى دهشة :

ــ تو . .

قالوا :

ــ نعم . . انه سيموت من الغيظ لو سبقناهم .

ولاشك أن هذه المعلومات اربكتنى ، فقد كادت حياتنا أن تنتهى فى تلك اللحظة وقد ظهرت أمامى فجأة عربة نقل واقفة بغير أنوار . وما كدت أتفاداها ، حتى سمعت صيحاتهم بأنهم سبقونا ، وكانت يداى ترتعشان ، ثم امتدت الرعشة الى قدمى التى تضغط على البنزين ، وأيقنت أن أعصابى قد أرهقت ، ورغم ذلك استولى على عناد أحمق ، فلم أخفف من ضغط البنزين ، واندفعت الالفا بسرعة مخيفة ، وأنا لا أدرى ما اذا كنت أسيطر على اندفاعها أم أنها تجرى بقوة مجهولة ، وسبقنا الفولكس عند اشارة المرور فى الابراهيمية ، ولابد انى خرقت اشارة المرور ، ولابد انى نجوت اكثر من مرة من موت محقق ، ولكن كل هذا كان يحدث وكأنه لايحدث ، فلم أعد أعى مايدور بحولى ، ولا أسمع الصيحات والنداءات ، كانت لحظات بلا منطق ، لا يحكمها حرص او حذر ، ولا يحكمها قانون خارجى من اشارات حمراء وخضراء ، ورجال مرور ، وسيارات وأناس تعبر الطريق . الشىء الوحيد الحقيقى ، كان ذلك الحريق الهائل داخل موتور السيارة ، التى يندفع بها ، وذلك النبض الذى يرتجف به

كل عصب فى جسدى ، لاشك فى أن كل ذرة فى جسمى كانت فى قمة نشاطها ، وتوشك أن تنفجر كما تنفجر معها السيارة فى أية لحظة ولكن شيئا لم ينفجر ، وما كنت لحظتها أستطيع أن أدرك ، وقد فقدت عقلى تماما ، أن هناك شيئا يوشك أن ينفجر ، وكل ما أذكره بعد ذلك هو أن السيارة وقفت أمام فيللا فى شارع جانبى ضيق متفرع من طريق الحرية عند رشدى . أذكر الشارع المظلم،وصيحاتهم التى لا اسمع ولا افهم ماتعنيه ، ثم أذكر وجوههم وهى تخاطبنى ، وهى تحمل وهجا فى العيون . ثم أذكر كيف بدات استرد ذاكرتى ، وافكر فى أن الفولكس سوف تأتى الان فى اية لحظة . وأذكر أن كل ما كان يهمنى عندئذ ، هو أن أرى « تو » يهبط من « الفولكس » وان أنظر فى عينيه ، وانى سأتمتع فى لقاء النظرات بفرحة فوز ، وما كان يهمنى أن أراجع نفسى واسألها عن قيمة هذا الفوز ، وهل هو فوز رخيص ، أم كبير . ولكن تشاء الظروف أن تلقننى درسا ، تعلمته كاملا فيما بعد ، وكانت بداية هذا الدرس فى عدم وصول الفولكس وما أعقب ذلك من أحداث ، ان أتعجلها ، ويكفى أن أسجل الآن ، أنى لم أحصل على ذلك اللقاء الذى توقعته مع تو ، ولم أحصل على فرحة الفوز . كانت قد مضت أكثر من عشر دقائق ، دون أن تظهر السيارة التى سبقناها وبدا لنا شبح حادث وقع لهم ، ورغم ان هذا الاحتمال كان شبه مؤكد مع هذا التأخير ، الا أن من كانوا معى لم يكترثوا بالامر ، أو على الاقل لم يقلقوا بنفس درجة قلقى ، وكان أهم مايشغلهم اقناعى بالصعود معهم الى الفيللا التى لا أعرف أصحابها ، وأذعنت عندما قالوا لى : « ابق معنا حتى نسمع شيئا عن أخبارهم فقد نحتاج الى عربتك مرة أخرى » .

فتحت لنا الباب فتاة مرحة لا يزيد عمرها على الثامنة عشرة ، وجهها صبوح بلا ماكياج ، وشعرها بنى منسدل على كتفيها كأسلاك من خام النحاس . ولها عينان سوداوان واسعتان فيهما بريق ينفجر بالشقاوة والعفرتة ، ترتدى بلوزة صفراء ، وبنطلونا رماديا فضفاضا أشبه بسراويل جاريات هارون الرشيد ، أو هكذا قلت لنفسى ، مع انى لا أعرف على وجه الدقة ماذا كانت ترتدى جاريات الرشيد . وبعد برهة ، تبينت أن اهتمامى بهذه الفتاة لايوجد مايبرره ، فليس هناك مايجزم بأنها من أصحاب البيت ، كنا دلفنا الى صالة واسعة ، مزدحمة بالاولاد والبنات ، وتضج بالموسيقى ، وصوت توم جونز ، ولا أحد قدمنى لاحد ، ولا أحد يبدى أى نوع من الاهتمام بوجودى ،

فقضيت لحظات حرجة أعالج فيها مشكلة اهتمامي بنفسي ، وكنت أتحرك ببطء شديد ، ولا أدري ما صلة عدم اهتمامهم بي ، بشدة اهتمامي بألا أثير انتباههم . فهكذا كانت حالتي النفسية ، ووصلت أخيرا الى ركن احتميت به ، ثم فكرت في أن اعود واسير بينهم ببطء لاخرج هاربا من المكان . ولكن مثل هذا الخاطر لم يدفعني الى أي نوع من الحركة ، وسمعتهم يتحدثون عن موسيقى « آلسوبر ساكس » وخطر لي أن افعل شيئا ، هو أن اهدىء من روعي ، وأن أرقب هذا الجيل من الشباب ، ولكني لم اهدأ ، وقد اختلطت امامي الوجوه والاصوات ، وتحولوا جميعا الى مايشبه النقوش الصاخبة الزاهية في سجادة فارسية ، انك لا تستطيع أن ترى مالا تعرفه ، وغربتي عن هذا الجو كانت تعميني تماما ، بل أقول انها افقدتني القدرة على الابصار ، فلا أستطيع أن أميز بين فتاة وفتاة ، ولا استطيع أن أمارس هوايتي في التعرف على الشخصيات كما افعل بسهولة ويسر وأنا جالس مع أعضاء النادي من الكهول . أو عندما أذهب الى مقهى من مقاهي المنشية أو كامب شيزار . وقد بلغ بي الذهول أني وجدت في يدي زجاجة « كوكا » قدمتها لي احدى البنات ، لا أذكر من هي ولا متى أعطتها لي ، فلابد ان ذلك قد حدث بسرعة وبلا مقدمات ، وبلا كلمات من جانب من قدمتها وبغير انتظار لكلمة شكر من جانبي . كنت أحاول أن ابحث عن تلك التي أعطتني زجاجة الكوكا . كمجرد عمل اشغل به نفسي . عندما ارتفعت صيحة :

ــ كلهم في قسم البوليس .

وقبل أن أفهم ما الذي يجري ، كان أكثر من واحد يجذبني ، لاذهب الى قسم البوليس : انهم هناك .

وفي الطريق ، سمعتهم يرددون ــ لدهشتي ــ أن هذه ليست المرة الاولى وقال واحد منهم ساخرا :

ــ تو له مزاج خاص في دخول اقسام البوليس .

ثم أضاف متفلسفا :

ــ لابد انه الآن في قمة النشوة والسعادة .

وخفق قلبي وأنا أسمع هذه المعلومات الغريبة ، وسألت محاولا كتم انفعالي :

ــ وهل هذا مزاج ؟

وانطلقوا يروون لي عن حكايات « تو » ذات مرة كان يسير في الشارع قبيل الفجر بعد أن تركهم في نهاية السهرة ، وحدث أن

اعترضه مخبر واستراب فيه . وكان ذلك فى وقت شاع فيـه ان بعض الجواسيس الاسرائيليين لهم نشاط خاص فى الاسـكندرية وطلب المخبر من « تو » بطاقة تحقيق شخصيته . فامتنع ، فلما أصر المخبر انهال عليه « تو » شتما ، انتهى بالتشابك بالايدى ، ورغم تأخر الوقت تجمع بعض المارة ، واستطاعوا التدخل وفض الشـجار وأخرج « تو » بطاقته وعرضها على الناس ، رافضا أن يقدمها للمخبر بدعوى أنه يشك فى أنه مخبر حقيقى . وعندئذ أخرج المخبر بطاقته وأثبت للجميع أنه فعلا من قوة الشرطة ، ولكن « تو » تشكك فى صحة البطاقة ، وفجأة قال « تو » للمخبر :

ــ هيا بنا الى القسم .

وهناك وأمام الضابط النوبتجى ، تصرف « تو » بنذالة غير متوقعة فقد اتهم المخبر بأنه اعترض طريقه وطالبه بنقود . « ودليلى ياحضرة الضابط أنى لم أرتكب شيئا ، وهاهى بطاقتى معى ، ولا يسـتطيع هذا المخبر أن يتهمنى بشىء . وأنا الذى طلبت منه الحضـور الى القسم بعد أن هجم على وطلب منى عشرة صاغ . احمينى ياحضرة الضابط من هؤلاء المخبرين المفلسين الذين تحولوا الى بلطجية » .

وهنا سألت معترضا :

ــ ولكن كيف عرفتم بهذه القصة ؟

قالوا ضاحكين :

ــ هو الذى رواها لنا .

قلت على الفور :

ــ ان خياله واسع .

ولكنهم رفضوا هذا التفسير . وشرعوا يعددون لى المناسـبات التى تفوق الحصر والتى تحرش فيها « تو » برجال الشرطة . أحيانا كان يتحرش بهم فى اندفاع جنونى . عنده ارتكاريا من البوليس ، يكفى أن يرى الواحد منهم ليتحول الى ثور هائج تلوح امامه باللون الاحمر .

ورغم اقتناعهم الواضح بما يروونه عن « تو » الا أنى لم أصدق أن هذه هى الحقيقة . واعترف أنى سمحت لبعض الخواطر الصبيانية أن تشغلنى . فقد خطر لى أن « تو » يلعب لعبة غامضة . من نوع تلك الالعاب التى نرآها فى أفلام جيمس بوند ، فمثلا يمكن أن يتخذ احتكاكه بالشرطة كوسيلة للاتصال بهم بطريقة غير مكشوفة يتحايل بها على آخرين يراقبونه ويتشككون فيه .. وأن حياته سوف تتعرض

للخطر لو انه اتصل بالشرطة بأسلوب مباشر وعادي . ولكن سرعان مابدا لى سخف هذا الخاطر ، وأنه لايفسر لى سلوك « تو » ولا يصل بى الى حقيقة امره . ويبقى رغم ذلك ما أستطيع أن أؤكده لنفسى ، وهو أن فى الامر سرا . ومع ذلك ماشأنى به ، وما الذى يورطنى فى هذه الامور الصبيانية التى لامعنى لها . أن الاختلاط بهؤلاء الاولاد ليس وراءه الا البهدلة ، سباق جنونى بالسيارات فى الشوارع ، وحفلات راقصة صاخبة ، وأقسام شرطة . أليس الاجدر بمثلى أن يحتفظ بوقاره ، وأن يعود الى أصحابه فى النادى . يستمع الى .. وهنا توقفت عند مشهد زهدى وهو يصدر تأوهاته الجنسية . وكنا قد وصلنا الى القسم .

دخلنا حجرة الضابط النوبتجى ، وقد جلس الى مكتبه خلف حاجز قصير من الخشب . وقد وقفوا ومعهم « تو » الى الحـــائط بينما جلس لطفى المحامى تحت التمرين . وقدمت نفسى الى الضابط ومن حسن حظى انه عرفنى . وفسرت له سبب حضورى بقـولى « ولادنا فى النادى » فابتسم الضابط وقال وهو يتفحصنى :

ــ لعلك تكتب عنهم فى رواية .

قلت ضاحكا فى ارتباك :

ــ لو أفهمهم .

فقال :

ــ لا اظن انه من الصعب على رجل مثلك أن يفهمهم ..

ثم أشار الى « تو » وقال :

ــ خاصة هذا الاستاذ .

وفوجئت بمشهد غريب . فقد صرخ « تو » صرخة مدوية ، فى حدة انتحارية ــ ولا أجد وصفا آخر لها ــ وقال :

ــ أنا معترف بأنى شتمته .. وسوف أشتمه .. أنا لايهمنى شيء .. لا انت ، ولا وزير داخليتك .

وأعجبنى الضابط ، فى ذلك الموقف الغريب ، فقد احتفظ بهدوئه تماما ، وقال لى هامسا والابتسامة لا تفارق شفتيه :

ــ أحسن عقاب لامثاله أن تفوت عليه غرضه .. ولكن مادمت انت هنا ، فأرجو أن تقول لى انك سوف تهتم بعلاجه .

قلت فى دهشة :

ــ كيف ؟

قال الضابط :

ـ انه فى حاجة الى طبيب نفسى .

وعرفت بسرعة ما الذى جاء بهم الى القسم ، لقد منعتهم اشارة حمراء ـ ربما نفس الاشارة التى اخترقتها ـ من مواصلة السباق وخيل الى « تو » أن رجل المرور يتعمد أن يتلكأ فى أعطاء النور الاخضر ، فصرخ بأعلى صوته شاتما رجل المرور ، الذى ترك الاشارة وتقدم من الفولكس وقال لمن فيها :

ـ موش عيب عليكم يا أفنديه يامتعلمين .

فاذا « تو » يحاول أن يهجم عليه ، لولا أن منعه زميلاه من حوله ، وانتهى الامر بتصميم تو ورجل المرور على الذهاب الى القسم .

قال الضابط هامسا :

ـ هذه حالة هيستريا واضحة .

قلت له معتذرا :

ـ هذه أول مرة أعرف بها .

وعندما خرجنا من القسم ومعنا « تو » كانت نفسيته قد تبدلت تماما . كان فى حالة هدوء تام ، هدوء مابعد العاصفة ، وقد فاجأنى رغم أن مفاجآته لتتابعها لم تعد مفاجآت ، باعتذاره للضابط . وكانت الدموع تترقرق فى عينيه وهو يعتذر ، مما أثار الشفقة فى نفسى ، وأثار نوعا من النظرات والبسمات الساخرة عند الاخرين ، وكنت قد نسيت تماما نظرة الفوز التى أعددتها لالقاه بها . أن لقاء نظراتنا على نحو انسانى فيه فهم متبادل ، وفيه معنى يدركه كلانا ، ما زال أمرا بعيد التحقيق . وكما قلت ، لم أكن أعرف فى ذلك الوقت ، أن ماحدث ، وما سوف يتلوه من أحداث ، كان بداية لدرس سوف أتعلمه كاملا ، حول معانى لقاء البشر ، واهمية مايدور بينهم من سباق وتحديات ، وما يصاحب ذلك من تعرف على القيم والاحكام فى مواجهة الحياة والموت . ولكن مهلا ، فلا داعى للعجلة ، ولا للانسياق مع ماينتابنى مع هذه الذكريات من انفعالات . الذى جذب انتباهى بعد أن تقدمنا خطوات خارج القسم هو أن « تو » توقف ومد يده وأخرج بطاقته الشخصية وفحصها باهتمام ، وخيل الى انه يعيد قراءة اسمه ، فقد تحركت شفتاه . وعيناه مثبتتان على البيانات المدونة فى البطاقة . وأخيرا ظهرت على وجهه أبتسامة هادئة ، تمتزج ـ هكذا خيل الى ـ بألم دفين كأنه يخفى سكينا مدفوسا فى ضلوعه ولا يريد أن يعرف أحد منا بأنه مطعون بهذا السكين . ووجدتنى أتقدم منه وأسأله باهتمام ساذج :!

ـ هذه بطاقتك الشخصية طبعا .

فوجه الى نظرات مستسلمة . تشع حزنا ، وقال وهو يقدمها الى :

ـ هى بطاقتى . . انظر .

قالها كأنه يطلب منى أن أتأكد له . وهو طلب لو صح لكان غريبا ولا تفسير له ، فارتبكت ، ومع ذلك مددت يدى الى البطاقة ، كنت لا استطيع ان ارد يده الممدودة الى ، وامسكت البطاقة ورددت في غير فهم :

ـ انها بطاقتك .

قال هامسا :

ـ وفيها اسمى .

وخيل الى انه قد مضت برهة قبل أن يضيف بنبرة خاصة :

ـ وفيها اسم أبى وجدى .

قلت :

ـ أذن فهى بطاقتك . . لقد ظننت انك تخشى أن يكون الضابط قد اعطاك بطاقة اخرى .

فنظر الى محدقا . . قبل ان يقول بصوت غريب :

ـ ليته فعل .

نظرت اليه ، كانت عيناه لا ترياني ، واختطف بطاقته من يدى ، وجرى الى السيارة الفولكس يلحق بهم . . واذا به يصيح :

ـ هيا نكمل السباق .

هتفت فزعا :

ـ مستحيل .

لم أعد قادرا على احتمالهم ، لقد شدوا اعصابى بما فيه الكفاية ، وبلغ بى الارهاق حدا اصبح فيه من المحتم ان أشرب قدحين من الينسون وانا داخل فراشى حتى أنام .

ولم انم ليلتها ، فقد شغلت باجترار ماحدث ، حتى سمعت آذان الفجر يتردد خارج البيت من مئذنة الجامع المجاور . عندئذ لعنت الارق ، ولعنت الفضول ، وتذكرت ماقاله لى الضابط ، عن هذه الشخصيات . وبدات أفكر من جديد ، هل هناك احتمال فى أن يأتى يوم اعرف فيه السر . . سر « تو » . ثم اذا بى أسأل نفسى فى حيرة وقلق . هل هناك سر على الاطلاق ، أم هى أوهام تراودنى وتجعلنى أتخيل اشياء لا صلة لها بالواقع ، وعندما وصلت أفكارى

الى هذا الحد ، غلبني النوم .

وذهبت في المساء الى النادى ، وأنا أعرف انه لا مفر من لقاء حاسم بينى وبين اللواء زهدي . فلما وصل هجمت عليه ، وقلت له وقد اتخذت مظهرا حادا :

ـ اسمع يازهدى بك . انت الوحيد الذي يستطيع أن يشرح لى الموضوع وأصله وفصله .

ولم أتركه يتراجع ، فرويت له ماحدث فى قسم الشرطة وحالة الهيستريا التى أصابت « تو » . وكان يستمع الى ، ووجهه يتغير ، بل كان أحيانا يتقلص من الالم .

وأخيراً ، جعل يتلفت حوله ، كأنه يختنق ويبحث عن نسمة هواء .. ثم جذبنى من يدى قائلا :

تعال معى الى بيتى .. سوف أحكى لك كل شيء .

الفصل الثالث

يسكن اللواء زهدى فى احدى عمارات « الازاريطة » المطلة على ترام الرمل .. وهو يعيش وحده ، وقد تعود على ذلك منذ زمن بعيد منذ أن طلق زوجته التى انجبت له ابنه الوحيد حسن . ويقسولون فى النادى أن الطلاق تم والزوجة مازالت حاملا . على أية حال أنها قصة قديمة مضى عليها أكثر من ربع قرن ، وكان قد سبق لى زيارة زهدى فى بيته مرة واحدة ، ومن يومها قررت بينى وبين نفسى الا أكرر هذه الزيارة مهما كانت الاسباب . كان ذلك منذ حوالى عامين ، وكنت قد ذهبت الى النادى فى الصباح ومعى بعض الصحف الاجنبية لاقرأها ، عندما دخل زهدى ، ولم يجد أحدا غيرى من معارفه ، وكان مجيئه فى مثل هذا الوقت أمرا غير مالوف منه ، وجلس معى . وسرعان ماتبينت أنه متوتر الاعصاب ، لانه قادم لتوه من الميناء بعد أن ودع ابنه حسن المهاجر الى كندا . ورثيت لحاله ، لانى أعلم بالمحاولات اليائسة التى بذلها ليقنع « الولد » بالبقاء معه والعدول عن مشروع الهجرة . كان زهدى يملك أرضا خصبة بجوار كفر الدوار استطاع أن يحولها الى حدائق ، وكان يقول لاصحابه شاكيا : هذه الارض دخلها السنوى لا يقل عن ثمانية آلاف جنيه ، ويعلم الله الدماء التى نزفتها والاعصاب التى أحرقتها ، لأجعل منها حديقة مثمرة ، ولمن كل هذا ، أليس لابنى حسن ، يرثها ويتمتع بها هو وأولاده ، ولكن هاهو يريد أن يتركنى ويترك الارض والبلد ومن فيها ويهاجر .. هل سمعتم بشيء مثل هذا . لو كان فقيرا محتاجا لاقتنعت بما يريد ، يسافر ويكافح ويشقى فى بلاد الله ليحصل على رزقه ، ولكن الرزق أمامه فلماذا يتركه ، لماذا يترك أرضه ، ليبحث عن أرض أخرى لا يعرفها ولا يملك فيها قيراطا أليس هذا هو الجنون بعينه ؟

وكان أصحاب زهدى يرونه متجهما مهموما ، فيعرفون أن الولد مصمم على الهجرة ، وأحيانا يرونه مبتسما راضيا ، فيقدرون انه نجح فى اقناع الولد بالعدول عن فكرته ، وأحيانا كانوا يسخرون

من زهدى .. قائلين له : الولد له كل الحق فى أن يتبرأ منك ، وقد يتجرأ واحد منهم فيقول له وهو يتبادل معه الشتائم : وما أدراني أن هذا الولد ابنك لقد طلقت امه من قبل أن تلده .. وكان زهــدى لا يغضب من مثل هذه التعليقات الحادة ، بل يواجهها بأن يروى بألفاظ بذيئة ، كيف انه واثق من تلك الليلة التى أنجب فيها الولد ، وقد يصفه أكثر من واحد من أصحابه بأنه .. متهما اياه بأنه مصاب بالشذوذ ، ولكن مثل هذه الاتهامات كانوا يتبادلونها جميعا فيمــا بينهم على طريقة أولاد المدارس . فهى لا تمطى اتهاما حقيقيا ، انها مجرد ألفاظ وأسلوب يناوشون به بعضهم بعضا ، وذات مرة تحدث معى زهدى فى مشكلة ابنه ، وكان جادا ، يريد نصيحتى .. وكان مما قاله لى ، أنه عرض على حسن أن يعطيه مرتبا شهريا من جيبه فوق مرتبه كمهندس زراعى ، وانه على استعداد لان يعطيه مــائة جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ كبير ، اذا قدرنا أن الولد يستطيع بعد ذلك أن يتزوج ، وهناك عشرات العرايس ، كلهن من بنات أحســن العائلات فى مصر . ولن ترفض واحدة منهن أن تكون زوجة له ، ولكن حسن رفض كل هذه المقترحات كأنه واقع تحت تأثير ســحر يلغى قدرته على التفكير فى مصلحته ، ثم أضاف زهدى منفعلا :

ــ هل تصدق ياسيدى ، انى حاولت افساده ، قلت لنفسى ، ربما لو تعود على سهرات الكباريهات والبنات اياها ، فربما يتخلص من هذا العفريت الذى يركبه واسمه الهجرة ، ولكن لا فائدة ، أرسلَ خطابات ، وتلقى خطابات ، وملأ استمارات حتى اضطررت الى التدخل واستخدام صلاتى لمنعه من السفر ، فما كان منه الا أن قاطعنى ، وسمعت أخيرا انه قدم أستقالته من عمله .

وسألته :

ــ ولماذا تقف فى سبيله .. اتركه يفعل مايشاء .

قال محتجا :

ــ والارض ..؟

قلت محاولا تهدئة روعه :

ــ سيعود اليها يوما ما .. ليس هذا هو المهم ..

فصاح فى ضيق لا يخلو من سخرية :

ــ وماهو المهم .. باذن الله .

أجبت :

ـ المهم هو أن تثق به .. والا تفرض عليه حياة اخرى غير التى حلم بها .

ورفض تماما هذا المنطق ، وانطلق يحدثنى عما يجب أن تكون عليه الصلة بين الاباء والابناء . الولد يرث أباه ويحمل رسالته من بعده . الولد مثل المال زينة الحياة الدنيا . والاب يملك ابنه ويتمتع بهذه الملكية كما يتمتع بماله الخاص . واذا كنا سوف نموت يوما ما ، فلسوف نحيا فى أولادنا ..

واذكر انى قاطمته قائلا :

ـ ان الحياة التى تحملها أجسادنا الفانية ، هى ملك للحياة كلها ، اعنى الحياة فى جميع البشر ، ونحن لا نستطيع أن نحتكر حياة خاصة بنا يتوارثها الابناء والاحفاد الى الابد .. أن هذه الحياة الخاصة مرتبطة باشخاصنا نحن ، ولابد أن تنتهى بوفاتنا .

فزمجر زهدى :

ـ هذا كلام نظرى تكتبونه فى الروايات والكتب ، وانت تقوله لانك اعزب ، ولو كان لك ولد لما قلت هذا الكلام الفارغ .

وسكت باسما ، فقد كان على وشك أن يشتمنى بالفاظه البذيئة .

ولكن لم تمض ايام حتى اعترف لى بأنه وافق على سفر الولد .

وهكذا انتهى الصراع بينه وبين ابنه ، وهاهى الصدفة تجمعنى به وهو قادم لتوه من ذلك الوداع الحزين . وحاولت أن أسرى عنه . وفكرت فى شىء أقوله يشعره بأنى قريب منه ، فحدثته عن الصلة بين رجل الشرطة وكاتب الرواية ، وكيف أن كليهما عليه أن يسجل انطباعاته عن الناس ، سواء ماظهر منها وماخفى بدقة شديدة ، وحدثته عن سومرست موم الذى استغلت المخابرات البريطانية موهبته كروائى ، ليكتب لها تقارير خاصة عن البلاد التى يزورها ، ولاشك انى افلحت بعض الشىء فى جذب انتباهه الى ما أقول . وكنت واثقا فى نفس الوقت انه لا يفهم تماما ما أعنيه . وتأكد لى ذلك ، عندما شرع يحدثنى عن كتب الادب العربى القديم التى يقتنيها . وكيف أنها فى مجلدات انيقة اشتراها فى مزاد أقيم منذ سنوات فى قصر تاجر لبنانى ثرى فى زيزينيا .. ثم دعانى فى حماس مفاجىء الى أن أذهب معه الى بيته لانه قرر أن يهدينى هذه المجلدات .

تعجبت لحماسه المفاجىء ، وفسرته بأنه يريد أن يطمئن الى انى سوف أكون معه اطول وقت ممكن ، وانه لا يريد أن يخلو لنفسه ليواجه ماتعانيه من آلام نفسية بعد وداعه لابنه حسن ، ثم خطر لى

.. ان الامر قد يكون أفدح من ذلك ، فهاهو بلا وعى منه ، يريد أن يتخلص من بعض مقتنياته التى كان لابد أن يحرص عليها لو كان حسن ممه ، يرثها منه ، ويضعها فى مكتبته ليستفيد منها أولاده واحفاده .
على اية حال ذهبت يومها معه الى بيته فى « الازاريطة » ، وعندما دخلنا العمارة فى طريقنا الى المصعد ، مررنا بشقة بابها مفتوح ، وقد وقفت خارج الباب ، امرأة ضخمة ، هائلة الجرم .. بدينة ، شعرها مخضب بالحناء ، وكانت تتحدث بصوت خافت مع رجل ليبى يكشف جنسيته غطاء رأسه وملابسه الخاصة البيضاء ، وما كادت المرأة ترانا حتى رفعت عقيرتها ترحب بزهدى ، وكان صوتها أجش يفضح حياتها المريبة .

وعجبت للتحول المفاجىء الذى طرأ على زهدى ، فقد انقلب بغتة الى رجل مرح سليط اللسان ، يخاطب المرأة بكلماته البذيئة .

وقال لها ، وقد امسك بذراعى ، أنه سيحاول أن يجعلنى واحدا من زبائنها ، وقالت له المرأة وهى تتمايل رغم ضخامة حجمها ، وبلهجة فيها دلال مبتذل ، انها لا تفهم ما الذى يعنيه ، فزعم لها زهدى أنى أحد المغرمين بها شخصيا .. فأطلقت المرأة ضحكة عالية ممطوطة القت الفزع فى قلبى ، وقالت كلمات يفهم منها أن أيامها مضت ، وكانت تتفحصنى وهى تتحدث بعينين فاجرتين ، بينما وقف الرجل الليبى يرقب المشهد فى صبر يوشك أن ينفد ، وفجأة جذبنى زهدى ، ومضى بى مبتعدا الى المصعد ، وكأنه فرغ من طقوس لابد أن يؤديها ، ولا يتوقع من ورائها شيئا ، ولا تتوقع المرأة من ورائها شيئا .. كأن أكون أحد زبائنها فعلا .

وقال لى زهدى وهو يفتح باب المصعد :

ــ الا تعرفها ؟ منيرة بيجو .

قلت :

ــ سمعت اسمها يتردد بينكم .

قال :

ــ اشهر امرأة فى الاسكندرية .

كانوا يعرفونها ، وأحيانا يأتى أحد الاعضاء الى النادى ، وما يكاد يظهر حتى يختفى ساعة أو ساعة ونصفا على الاكثر ثم يعود . ويسأل بمجرد دخوله اذا ماكان أحد قد سأل عنه فى التليفون ، وعندئذ يعرف الجميع ، أنه قادم من مغامرة بسيطة ، لقاء سريع ، وأنه قال لاهل بيته انه فى النادى ويريد أن يطمئن الى أن زوجته لم تسأل عنه اثناء غيابه . ولذلك غالبا مايقابلون العائد من المغامرة مهللين :

التليفون سأل عنك . فيصيح فيهم غاضبا .. ياولاد الكلب ياكدابين .. ولكنه يقلق ويضطرب حتى يقسموا له أن أحدا لم يسأل عنه ، أما اذا وقعت الواقعة وسألت الزوجة أثناء غيابه فالكل يتكاتف فى مواجهة الموقف ، لقد نزل ليودع أحد الضيوف الاجانب ، وسوف يصعد حالا ويتصل بك .. أو .. لقد كان موجودا هنا منذ دقيقة واحدة ولا ندرى اين ذهب لعله فى التواليت .. سوف نخبره ليتصل بك .. وهكذا تتلقى الزوجات اجابات التسويف والمماطلة ، حتى يعود الغائب ، فيجرى لاهثا الى التليفون .. وياحبيبتى تصورى أنى كنت فى المكتبة ولم ينتبه أحد الى البحث عنى هناك .

وأحيانا ، كانوا يستقبلون العائد من المغامرة ، بسؤال قصير . يسأل السائل :

ـ ازيها ..

ويجيب العائد :

ـ كويسة ..

ولكن مثل هذه المغامرات ، كانت تقع فى فترات متباعدة ، وقد تمضى شهور قبل أن يحدث شىء من هذا القبيل . وذلك طبيعى بحكم السن ، وظروفهم الاجتماعية . ولاشك انهم كانوا يطمئنون الى منيرة بيجو ، لانها كانت تتمتع بما يشبه الحماية من زهدى . ومع ذلك فلابد أن اعترف بأن معلوماتى عن هذا الجانب من حياة هؤلاء الكهول من أعضاء نادينا ينقصها الكثير ، وهى لا تعدو سماع القفشات والتشنيعات العامة ، أما تفاصيل مايجرى من اتفاقات ومواعيد فكان يتم همسا وسرا ، ولم اهتم بأن اعرف عنه اى شىء ، حتى جاء ذلك اليوم ورأيت فيه منيرة بيجو بلحمها وشحمها ، وهاهى تعود الى حديثها مع الرجل الليبى بينما يرتفع المصعد بنا الى الطابق السابع وانا ارقب ذلك التحول الحاسم الذى طرأ على زهدى ، لقد نسى تماما هجرة ابنه حسن ، واصبح من المؤكد أنه فى غير حاجة الى وجودى معه لاسرى عنه ، لقد انطلق يثرثر وقد التمعت عيناه بفرح مبتذل وحشى ، عن كفاءة تلك المرأة منيرة وقدرتها على لقاء عشرات الرجال ، وكسب عشرات الجنيهات فى اليوم الواحد . امرأة تعجبك ، أجدع من كل الرجال الذين ليسوا رجالا .. ما الذى لديهم يتباهون به .. هذه الذيول التى تتدلى من بين أفخاذهم ليتبولوا منها .. كان سليطا بذيئا . وكنت أشعر بحرج شديد لانى لا أعرف كيف « انسجم » معه فى هذا المجال الذى ينطلق فيه ، وكنت أدرك من

تجاربى مع هذا النوع من الرجال ، أنهم عندما يتدفقون في الكلام البذيء .. ممتزجا بانفعالات عاطفية ، فلابد أن تبادلهم بذاءة ببذاءة وتشاركهم هذا الابتذال متخليا عن أى حاجز تفرضه تقاليد أو تربية أو ثقافة أو خجل طبيعى .

اذا لم تستطع أن تدوس على كل هذا ، وتندمج معه ، فسوف ينقلب ضدك حتما ، ويهاجمك بشراسة . انه لا يحتمل أن تتخلى عنه فى هذا الموقف الذى يتعرى فيه من كل القيم ، أنه لا يطيق أن تتفرج عليه ، أو تتعالى أو تنفر أو تخجل أو حتى ترتبك ، ولذلك . فان نجاتى من تلك الحالة الخطرة التى انتابت زهدى كانت أشبه بمعجزة . وربما ساعد على ذلك ابتسامتى التى ثبتها على وجهى ، والقهقهة التى كنت افتعلها ، ولكنها كانت لحظات عصيبة . قررت بعدها الا أكرر مثل هذا اللقاء المنفرد بزهدى مهما كانت الدوافع والاسباب .

كانت شقة صغيرة ، تبدأ بصالة كبيرة ، تجمع بين مائدة الطعام وفريجيدير وبوفيه ، وتشغل بقية المساحة كنبة ستوديو خضراء ومقعدان فوتيل مكسوان بالقطيفة الحمراء بينهما منضدة عليها راديو قديم ، وفى ركن بجوار نافذة ، جهاز التليفزيون .

وكانت هناك بالطبع ، المكتبة التى جئت من أجلها ، ضحكت فى سرى لمنظرها ، فقد كان خيالى قد رسم فجأة صورة لمكتبة ضخمة ، تحوى مجلدات ومجلدات لعيون الادب والشعر العربى ، ولكنها كانت دولابا صغيرا ، حقيرا ، ظهرت فيه خمسة مجلدات حمراء ، لاجزاء متفرقة من الاغانى للاصفهانى ، وحيوان الجاحظ ، وصبح الاعشى للقلقشندى ، وكنت قد اقتربت من هذه الكتب وعبرتها بنظرة سريعة ، لاوجه اهتمامى ــ كما يجب فى مثل الحالة التى كنت أعانى منها ــ الى مجموعات من مجلات الصور العارية ، ووجدتنى أقول لزهدى فى محاولة ساذجة لارضائه والاندماج معه .

ــ هذه المجلات هى المهم ، لاكتب الادب ياجنرال .

وقضم الطعم بسهولة . فقد فرح وصاح منذرا وقد اخذ كلماتى على محمل الجد :

ــ هذه لا افرط فيها .. انا أستخدمها .

وأتى بحركة بذيئة .

قلت وأنا مزهو بالتمثيلية الصغيرة التى أقوم بها : ــ ولو مجلة

واحدة ..

فأخرج صوتا منكرا وقال :

ــ أبدا .. ولا واحدة ..

فتظاهرت بخيبة آلامل . وقلت وانا أشير الى المجلدات الحمراء :

ــ امري الى الله . يكفينى هذا الجزء من حيوان الجاحظ ..

فنظر الى مستريبا وقال : ــ لماذا ؟

قلت : لان به قصصا عن العلاقات الجنسية بين الحيوانات .

فضاقت عيناه هاتفا :

ــ ولا هذا أيضا ..

ثم ضحك فى شراسة واضاف :

ــ هل صدقت انى اعطيك شيئا من هذه الكتب .. هل تظن انى عبيط .

قالها وكأنه يقرر أنه يملك اثمن كتب فى آلعالم .

ثم أضاف :

ــ ولكن .. سوف أقدم ماهو أهم .. ستتناول طعام الغداء معى .

وأخرج من الفريجيدير بعض الاوانى الالومنيوم ، وساعدته فى حملها الى المطبخ ليتولى تسخين الطعام ، وعرفت أثناء ذلك أن تلك المرأة البدينة « منيرة بيجو » هى التى تعد له طعامه مرتين فى الاسبوع وترسله اليه ليحتفظ به فى آلفريجيدير ، وانطلق يشكو منهـا ومن سرقاتها . انظر كم هى سمينة .. من أكلى الذى تنهبه .

ثم أضاف بلا أدنى حياء :

ــ انها أغنى منى .. ولو كان أحد غيرى لكان اخذ منها ، لا أن يتركها تسرقه .

قلت له : لعلها تريد أن تتزوجك .

فصاح ضاحكا : لا .. تسرقنى احسن .

ثم قال : عيشة وسخة بنت شر .

وقد ردد هذه الجملة بعد ذلك أكثر من مرة ، وكأنها شعار او مبدأ ، وعندما ذهبنا الى المائدة ، هاجمنى المغص ، ربما بسبب قلقى وخوفى منه ، وربما بسبب معرفتى أيضا ، أن تلك المرأة البدينـة الغريبة هى صانعة الطعام الذى نأكله ، وكان لابد أن اتظاهر أمامـه بأنى مقبل على الطعام ، ولكنى تحصنت أيضا باعلانه أنى أتبع ريجيما خاصا يمنعنى من الاكل الا بمقدار ضئيل .. ملعقة واحـــدة مـن

المسقعة .. وملعقة ارز .. وقد أصبح كل همى هو أن أسرع بالانصراف هاربا من هذا الكابوس ، لانهى صلتي به ، ولا أعود اليه أبدا .

واستطعت بالفعل أن أنصرف فور الانتهاء من الغداء ، رغم أنه الح فى أن يحضر لى بيجاما واستريح على الكنبة الستوديو ، فاعتذرت لانى على موعد مع قريب قادم من القاهرة . كان استمرار مواجهتى لابتذاله امرا فوق طاقتى ، قد احتمل البقاء معه ساعة أو ساعتين .. ولكن أعظم ممثلى العالم يعجز عن الاستمرار فى أداء دور مرهق طوال هذه الفترة وهو واقف على خشبة المسرح وحده .

وجاءت لحظة الانصراف ، وكان زهدى واقفا يودعنى عند الباب ، عندما تفجر الموقف الانسانى الوحيد بينى وبينه ، فقد تجهم وجهه ، وبدا عليه الالم ، وكان قد أمسك بيدى يصافحنى ، فظل متشبثا بيدى يضغط عليها بكفه ، كأنه يعتمد عليها ليحتمل الما يشعر به ، وارتعشت شفتاه ، وهو ينظر فى عينى نظرات متوسلة ، نظرات ضائعة .. وقال بصوت متحشرج :

ــ اتدرى لماذا هرب الولد .

نظرت اليه في دهشة . وراعنى أن عينيه يلتقيان بعينى ، فيتشابك العيون أو لعلها تتعانق ، وسمعته يقول كالمخاطب نفسه :

ــ يجب أن أواجه الحقيقة .. انا اعرف .. الولد يكرهنى .

لم أستطع أن أنبس بكلمة ، بينما عيناه تتوسلان الى أن أسعفه .. بماذا أسعفه ؟ لا إدرى .

وهمست :

ــ ماهذا الكلام يازهدى بك ..

بدا وكأنه عجوز فى المائة .. وجهه المربع مكرمش ، وفكه العريض ، هابط متدل .. وعيناه تتسعان لأن الجفون تتهدل .. كل شيء فيه يبدو وكأنه يساقط .

وهو يقول :

ــ الولد يكرهنى موت .

قلت متعمدا أن تكون لهجتى حادة .. لعل حدتها تدفعه الى التماسك ..

ــ كلام فارغ ..

قال هامسا : كأنه يبحث عن كلمات ضائعة :

ــ انا أعرف ..

وقبل أن أفتح فمي .. رفع عينيه .. حولهما هالات زرقاء ،
وقال فجأة .. وعيناه كأنهما لا تعرفانني .
ــ مع السلامة .
وأغلق الباب ، وكأنه يطردني أو يهرب مني ، واتجهت الى المصعد وأنا مرتبك ، وقبل أن أدخله ، رأيته وقد فتح الباب ، يخرج هاجما على وهو يصيح .
ــ أنت لم تأخذ معك الكتب .
وجذبني من يدي ، وكأنه لم يرفض أن يعطيها لي منذ قليل .
كان مصمما على أن أدخل الشقة ، وأحمل معي ما اريده من مجلدات . وكان لابد أن أفعل شيئا . وهكذا مددت يدي وجذبت اول مجلد ارتطمت يدي به . ولم أعرف أنه الجزء الرابع من صبح الاعشي للقلقشندي حتى وصلت الى الشارع ، ومررت بباب شقة « منيرة بيجو » دون أن أنتبه اليه ، أو أتذكر وجودها . كنت منفعلا بتلك اللحظات القصار التي التقت فيها عيوننا ، وهو يقول لي « ابني يكرهني » .. كان صادقا . أعني كان يشعر فعلا أن ابنه قد هاجر صباح ذلك اليوم لانه يكرهه ، وهو اعتراف ليس هينا ، ويحمل في طياته مشاعر من الالم تكفي لان تغسل وتطهر كل مافي نفس زهدى من ابتذال وبذاءة . بدا لي أنه يحتمي بالبذاءة ، مما في نفسه من آلام لا يحتملها البشر عادة .. كانت هجرة ابنه موتا من نوع غريب .. انفصالا بين الاب والابن .. قضى على كل ماعاش به زهدى من قيم وتقاليد .. ابنه لن يرثه .. ولن يكون استمرارا له من بعده .. لا أرث ولا استمرار . بل انفصال وبتر .. وعلى زهدى أن يلقى بكل حياته في القبر الذى سيحتوى عظامه بما فيها من دود ينخرها ، أو يفهم في عمر متأخر ــ يكون من المستحيل أن يتحقق فيه أى من الفهم الجديد ــ أن حياته سوف تصب في كل البشر .. كما يصب الرافد الطمى في النهر وكما يصب النهر في البحر ، ويصب البحر في المحيط ، وتذكرت أن أصوغ هذه الجمل والكلمات في رأسي حتى أواجه زهدى وهو يتهمني بأن أفكارى نظرية .
وفي مساء ذلك اليوم ، حملت أخبار سفر حسن زهدى الى اعضاء النادي . وكان زهدى قد تأخر ، وبدا أنه لن يحضر تلك الليلة ، ورويت لهم فيما يشبه التشنيع الذى يفرحون به ، ذهابي معه الى بيته ، وتناولي الغداء معه . ولقائي بمنيرة بيجو ، فضحكوا وقال رءوف علي ساخرا :
ــ أنصحك بالابتعاد عن هذه المرأة والا ابتلعتك ..

فسألته متخابثا : وهل بلغتك انت ؟
قال رافعا يده : أنا عندي القلب .
فصاح أكثر من واحد :
ـ منيرة بيجو .. كانت السبب ..
وقال آخر :
ـ أيامها كان اسمها منيرة فورد .
وعند خروجي انا ورءوف من النادى ، قلت له ، وأنا مازلت أفكر في زهدى :
ـ ولكنه بكل تأكيد حزين ، وهو يتألم كأن ابنه مات .
قال وعيناه تضيقان :
ـ سوف ينسى كل شيء .. انه فاجر .
كانت مثل هذه المعلومات ، معلقة في رأسي ، بلا قيمة ولا أهمية لها بالنسبة لي .. حتى ظهر « تو » في النادى .. وبدأت المس تلك الصلة الغامضة بينه وبين زهدى ، وهى التى فسرها أعضاء النادى همسا ، بأنها صلة تخابر أو شيء من هذا القبيل ، الى أن وجدتنى ذاهبا مرة أخرى الى مسكن زهدى في الازاريطة لاستمع منه الى أصل حكاية تو .. وكنت بطبيعة الحال اتوقع أن يكون مايقوله لى كذبا في كذب ، وماكان هذا ليدهشنى ، كان الذى يدهشنى أكثر ، هو اندفاعى بلا مبرر ، وبلا أي هدف . وراء فضول ملح لان اعرف من « تو » مايطفيء هذا الفضول .

الفصـــل الرابـــع

عندما سمعت اللواء زهدي يقول لي انه قتل والد « تو » لم افهم او على الاصح لم اسمع مايقوله . فقد اصابني الذهول ، أو لعلي احتميت به ، من بشاعة ما اسمع . ومع ذلك كان على أن أواجهه ولكن بعد مرور بعض الوقت . وخلوت الى نفسي في احدى الليالي ، واذا برعشة تسري في جسدي ، وصوتي يرتفع غاضبا صارخا ، ما هذا الذي سمعته ، وتبينت ليلتها ، ان شيئا ما قد أصابه العطب في نفسي ، ولا أدري كيف أعالجه ، وقلت لنفسي ، لو قد أصبت في حادث ، أثناء ذلك السباق المجنون بين السيارة التي أقودها والسيارة التي كان يركبها « تو » وتهشمت لي ساق ، و تكسرت ضلوعي ، لكان الامر أهون ، فهناك أطباء ومستشفيات لعلاج مثل هذه الاصابات أما اصابة النفس ، ومواجهة العجز والعطب فيها فأمر لا أدري من يعالجه ، واين أعالجه ، أن الاضطراب يسيطر على تماما كلما تذكرت تلك الليلة التي ذهبت فيها مع اللواء زهدي الى بيته لاسمتع منه الى حكاية تو . وأنا الان أفهم تماما قوله لي عندما سألته أول مـــرة « لا تجلب المتاعب بدون مبرر » ، كان يجب علي الا أتجاهل صيحته المحذرة ، أو لهجته التي شعرت فيها بنبرة الم . ولكن كيف كـــان يخطر ببالي أن هذا الفضول الاخـــرق الذي جعلني أجـــري وراء « العيال » ، سوف ينتهي بي الى ما انتهيت اليه . ان الاضـــطراب يعاودني الآن ، وانا أحاول اعادة تسجيل مارواه لي اللواء زهدي ، وهناك قوى في داخلي لا تريد أن تسعفني ، قدرتي على التـــذكر تتخلى عني ، قدرتي على الصياغة تتشتت ، وأوجـــاع في بطني تهاجمني ، ولذلك . أرجو أن يعذرني من يتتبع هذه الحكاية ، ويقدر موقفي ، فيرضى بأن أقدم له مسودة كتبتها لنفسي في مناســـبة سابقة ، ومن حسن الحظ اني لم أمزق أوراق هذه المسودة ، وقد بحثت عنها طويلا حتى وجدتها في ثنايا مجلد « صبح الاعشى » الذي كان اللواء زهدي قد اهداه لي في زيارتي الاولى لبيته .. وكنت قد كتبت تلك الاوراق لانشرها ، ولكن في محاولة مني لمعـــالجة ذلك التشويه النفسي الذي أصـــابني خيل الى وقتها أن الـــكتابة قـــد تساعدني على الشفاء ، أو لعلها قد تكشف لي عن طريق للخلاص مما أعاني منه ، ولكن هيهات ، فالامر أفدح بكثير من أن تعالجه كلمات على ورق . وعلى أية حال ، هاهي المسودة ، كما عثرت عليها ، أنشرها

وانا لا اذكر تماما ماهو مدون فيها ، اذ انى لم أقو على مراجعتهـا أو تصحيحها ، فكلما هممت بقراءة السطور الاولى أصابنى دوار .

المســـودة

يجب أن أعالج نفسي ، يجب أن اتخلص بسرعة من هذا الاحساس المخيف بالعجز . وقبل كل شيء ، يجب أن أفهم بدقة ما الذى حدث ، ما الذى قاله لى اللواء زهدى فى بيته . المجرم الوغد يقول انه قتل والد « تو » ، وهذا الاعتراف فى حد ذاته يحيرنى ، مامعناه ، ومالذى دفعه لان يقول انه قتل ، هل هو نوع من الزهو بأنه أشرف على عملية القتل ، أهو تأنيب ضمير ، أهو خوف بدأ يساوره فى نوايا « تو » نحوه . بعد أن سمع منى قصص تحديه لرجال الشرطة . على أية حال ، ان كل هذه المشاعر المتضاربة ، أو التفسيرات المتعارضة ، هى نوع من الرفاهية اذا ماقورنت بما أشعر به . الذى أواجهه الآن بمنتهى البساطة ، هو ان الرجل صاحب المبدأ يقتلونه فى هذا البلد الذى أعيش فيه بصفتى كاتبا ، ثم أسمع تفاصيل قصة قتله ، فأخاف ولا أجرؤ على أن ازعق باعلى صوتى ، وان أعمل بكل قواى لاواجـه الجريمة وأطارد المجرمين . اكتفيت بمطاردة ابنه فى سباق طائش بالسيارات . انى أختنق ، لا لان الهواء ينقصنى ، فهاأنذا أفتح كل نوافذ البيت ، ومنظر البحر يمتد أمامى الى نهاية العالم ، وأنوار مراكب صيد « المياس » تعلو وتهبط ، ولكن الذى ينقصنى هـو الافكار ، أو العزيمة ، أو الفهم ، أو فى الحقيقة ان الذى ينقصنى الى درجة الاختناق ، هو كل هذه الاشياء التى بغيرها لا يكون الانسان انسانا ، ما الذى فعلته بثقافتى ، ما الذى وصلت اليه بأدبى ، هـل أنا انسان شاذ ، وزهدى هو الرجل الحقيقى ، ببذاءته ، وفجوره ، وقدرته على الاعتراف بالقتل الذى أشرف على ممارسته بالفعل . يجب أن اكف فورا عن هذا الهراء الذى أكتبه ، الافضل ان أعامل هذه المصيبة ، بعقل بارد كما لو كنت ألعب دور شطرنج . نعم يجب أن أبدأ بوضع القطع فى مكانها من الرقعة ، وارى كيف تحركت . وأدرس الموقف بدقة وعناية ثم أقدم على النقلة الصحيحة التى يكون فيها التصرف السليم ، والمهم هو أن أجد النقلة الصحيحة ، والا ضعت ، فهذه فى الحقيقة ليست لعبة شطرنج ، انها لعبـة الحياة والموت ، هيا تشجع واكتب المعلومات ، واجهها ، اقـرأها واجعلهـا

تفقأ عينيك ، واذا لم تتحمل هذه المواجهة ، فانفض يدك ، واذهب الى بار النادى واسكر كل ليلة ، وتمتع بساعات البار كل ليلة ، وادفع الثمن من تليف الكبد ، وانهيار جهازك العصبى ، ولا خوف ، فالموت سوف يأتيك لا محالة ، سواء كان بالويسكى ، أو الشيخوخة ، أو الانتحار ، أو بالقتل على يد رجل مثل زهدى فى حفلة من تلك الحفلات التى يقيمونها فى السجن ، ومع ذلك ورغم أن الموت واحد فللواحد منا أن يختار . ترى ماقيمة هذا الاختيار . لو كنت أستطيع أن أقابل ذلك الرجل ، والد « تو » الذى قتلوه . لقد اختار أن يموت هكذا ، كان قادرا على الاختيار . هل أقول طظ . مات فى ستين داهية ، هانذا أشتمه بسفالة لم يجرؤ عليها زهدى نفسه . لانه فى الحقيقة يحيرنى ويغيظنى . كأنه وهو يموت ، وهو يواجه القتل ، وهو يسقط لافظا أنفاسه الاخيرة ، يجذبنى الى حافة هاوية ويقول لى ان الحياة الحقيقية ، هى فى قبول التعرض للسقوط فيها . يقول لى انك لن تحيا حياتك الكاملة وأنت فى مأمن تام من الخطر ، يقول لى أن هناك لحظة تكتمل فيها كل الحياة ، فلا يكون هناك معنى للتخلى عنها مقابل نصف حياة أو ربع حياة ، ويصبح من الافضل على من فاز بلحظة الحياة الكاملة أن يموت ، ليصون ماحققه من اكتمال . هل هذا صحيح ، على العموم لقد جربت شيئا من هذا القبيل . وأنا مندفع بالفاروميو فى شوارع الاسكندرية بسرعة مجنونة . كنت أواجه الموت فى اية لحظة ، وأنا لا أهتم ولا أعى بأن هناك خطراً محققا . كنت أشعر أنى فوق كل مافى هذه الدنيا من قوانين ونظم سائدة ، كانت قوى مجهولة اكبر بكثير من القوى التى يعرفها الانسان فى حياته العادية الرتيبة تدفعنى وتملؤنى بطاقة جبارة لا منطق لها ولا حدود .. نعم ان الانسان يقبل مخاطرة الموت لمجرد أن يسبق سيارة مجاورة ، هكذا ببساطة ، يندفع مصطدما بقطار ، يعبر مزلقانا للسكة الحديد ، أو يحطم حاجز الكورنيش ، ويتحطم بسيارته على صخور شاطىء البحر . أن يسبق سيارة أخرى بثلاثة أمتار أهم عنده من الموت . أنه لن يحصل على مال ولن يكتسب طعاما هو محتاج اليه ، انه لا يموت دفاعا عن حياته ، بل هو يموت لانه يريد أن يحيا لحظة ما ، تكتمل فيها حياته . هل تكتمل حياتى فى سباق سيارات ، هذا غير معقول . واذا كنت قد عرضت حياتى للخطر فى السباق ، فكان همى الاول ، هو ان التقى بهذا الشاب « تو » . هل يعنى هذا أنى مستعد لان أعرض نفسى للموت ، من

اجل أن أتعرف على انسان ، اي انسان ، أتعرف عليه معرفة حقيقية ولكني لا اذكر اني كنت اسعى الى التعرف الى « تو » ، كنت أريد أن أعرف عنه ، أن أتبين سره ، وأن أكتشف حقيقة امره ، وهل هو من رجال المخابرات أو شيء من هذا القبيل ام لا . ولكني اشك الان في ان هذا كان مقصدي . لابد أن « تو » كان يحمل في داخله شيئا يجذبني اليه . لعلي شعرت بهذا الشيء على نحو غامض ، في نظراته أو في لهجته السريعة المتلعثمة ، او منذ أن قال لي وعيناه تضحكان انه يكون مسرورا اذا قال لخصمه « كش مات » لقد خطر لي ساعتها أن أسأل عن خصومه الذين يكرههم الى درجة أن يتمنى موتهم . ومازلت اذكر نظرته الطويلة الغريبة التي واجهني بها وانا أقول له انه ليس في حاجة الى رقعة شطرنج ليقول « كش مات » فهل كان ذكر الموت ، رغم انه جاء بطريقة عابرة في حديثي معه ، هو الذي جعلني اسعى الى الاقتراب منه والتعرف الى هذه الحياة اليانعة في الخامسة والعشرين ، وكيف تتعامل مع الموت وتفهمه . من يدري . ان الاسئلة لن تنتهي ، وأنا اتعمد الان اثارتها ، حتى أهرب من مواجهة مايجب أن أواجهه ، وهو تدوين كل ما عرفته من أحداث عن مقتل والد « تو » .

..

الحكاية بدات هكذا ، قال لي زهدي انه كان مديرا لسجن ... في أواخر الخمسينيات ، عندما جاءته تعليمات من المصلحة ، بالاستعداد لاستقبال دفعة من المساجين السياسيين . وكانت الليلة المحددة للعملية ، هي ليلة رأس السنة في الساعة الثانية عشرة بالضبط ، وعندما تطفأ الانوار اعلانا بانتهاء سنة ، وبداية عام جديد ، وبينما الناس أمثال هؤلاء السياسيين المثقفين ، يحتفلون ويشربون الانخاب لانهم جميعا كفرة يشربون الخمر ، سوف تهبط عليهم حملات الشرطة كالصاعقة في البيوت التي يحتفلون فيها ، وهي طبعا خطة بارعة ، لانهم متجمعون في بضعة بيوت ، عند الاثرياء منهم وهذا غريب جدا ، هكذا قال لي زهدي الذي لم يفهم كيف يتورط أولاد ناس اثرياء ومن عائلات كبيرة في مثل هذه الأمور التي تنتهي بهم الى المعتقلات والسجون ، والاغرب والادهى ، انهم يطالبون بأن تستولي الحكومة على ممتلكات عائلاتهم . أولاد فاسدون ، ملحدون اغلبهم بنظارات من كثرة القراءة والكلام الفاضي ، ولا أحد يعطف عليهم وأغلبهم مصاب بالشذوذ الجنسي لانهم يؤمنون بالحياة البزرميط وكان زهدي في قمة الضيق بالموعد المحدد لوصول المعتقلين . فقد

كان مدعوا عند صديق له في المعادى تعود أن يقضي رأس السنة عنده مع شلة الاصدقاء ، قد لايلتقون طوال العام الا في هذه المناسبة ، وكانوا يحتفلون احتفالا رهيبا ، سكرة يني. كان يشرب وحده زجاجة ويسكي لابد أن تكون « جراند ماكنيش » وكان يتفاءل بهذه السهرة ولكن أولاد النحس أفسدوا الترتيب وكان عليه أن يرتب للحفلة التى يستقبلهم بها . وكان لابد أن تكون حفلة من النوع الثقيل . وهى تحتاج الى خبير يتولى تنظيمها ، ويجرى لها البروفات قبل وصول الضيوف ، وكان في مصلحة السجون « خبير يعجبك » اسمه شوكت ، هو الوحيد الذى كان يعرف كيف يرحب بهم . تركى وسيم اشقر ، شكله حلو ، وبيني وبينك هو أيضا معروف عنه أنه عريق في الشذوذ الجنسي .. ولا يجب أن ادهش فالمثل يقول ، لا يفل الحديد الا الحديد ، ومصلحة السجون تتعامل مع أوسخ أصناف البني آدم ، ولذلك فهي تستعد لكل نوع برجال من نفس نوعهم . القتلة لا يشكمهم الا من كان قاتلا مثلهم ، لا يهم أن يكون قاتلا بالفعل ولكن لابد أن يكون عنده استعداد لان يقتل في أية لحظة ، اذا ماهاج او تمرد المساجين . وكان شوكت هذا ، له شهرة مدوية ، كان قد درب فرقة من الوحوش ، تعمل تحت أمره . ويذهب بهم الى أى سجن في المهام الخاصة ، وقد جاء مع فرقته ، وبدأ يجرى البروفات في هذا العنبر سوف يدخلون . ثم يهجم عليهم بعض الرجال وبيدهم الهراوات ، صارخين فيهم أن يتجردوا من ملابسهم ، بلا تأخر ولا ابطاء . يجب أن يصبح كل واحد بلبوصا بغير اى تردد ، أو تفكير فيما يفعله ، ثم يدفعوا تحت ضربات الهراوات الى حوش السجن ، ليمروا بين صفين من رجال الفرقة ، وهم يحملون ملابسهم مكومة فوق رءوسهم ، وطبعا ، لابد ان يرفع الواحد منهم كلتا يديه حتى لا تسقط كومة الملابس ، وكذلك يصبح جسمه العارى الملط معرضا للضرب ، في أى موقع ، وهو يجرى ، حتى يدخلوا واحدا واحدا في عنبر آخر ، فيستقبلهم الحلاق ، ويأمرهم بالجلوس القرفصاء ، ويحلق شعرهم نمرة واحد . ثم يستلم من يحلق ملابس السجن . هذه هى باختصار ترتيبات الحفلة ، وقد أجرى شوكت البروفة ، وبدا أن كل شيء على مايرام .. وما كان زهدى يتوقع أن تحدث مشكلة . فهذه الحفلة رغم ضخامة ضيوفها واهميتها تقليد متعارف عليه ، وهو ضرورى لان النزلاء لابد أن تواجههم منذ اللحظة الاولى صدمة صاعقة تكسر شوكتهم ، وكلما كانت الصدمة قوية وشديدة ،

كلما سهلت الامور فيما بعد ، والحفلة الناجحة يتوقف عليها الكثير في تحديد العلاقة بين المساجين وادارة السجن ، خاصة اذا كان المساجين من المثقفين وكلهم عقد ، فهم يواجهون السجن بشعور قوي من التحدى ، واحيانا يهتفون أو ينشدون أناشيد جماعية ويتظاهر بعضهم بالبطولة ، وقد يكون لبعضهم تأثير على السجانين الغلابة ، أو حتى على الضباط الصغار الذين خرجوا حديثا من المدرسة .. وقد يتساءل هؤلاء الضباط فيما بينهم عن السبب في الاعتقال وجدواه ، أو يدخلون في مناقشات غير مرغوب فيها حول الافكار التي يعتنقها هؤلاء المساجين . وقد يؤدي هذا اذا لم يضرب من البداية ، الى تعاون يؤدي الى كارثة ، هرب أو تهريب يساعد فيه السجان ، أو الضابط الصغير . لذلك يصبح من المحتم أن تقول انا هنا ولا احد منكم يا أولاد الكلب يستطيع أن يرفع صوته، أو يقول انا رجل ، مسألة نظام ومسئولية ، وألا انقلب الحال الى فوضى .. انها معركة بين ارادتين . ارادتي أنا .. أو ارادة السجين ، ولذلك لابد من قهره ، اذلاله وكسر ارادته ، لابد أن تكسر عينه . ثم بعد ذلك ترتاح ، لانه يصبح كالعجينة الطرية تشكلها كما تريد . هذا هو الهدف من الخطة .. وكان يجب أن أشهد حفلة كهذه . قالها زهدي وهو يضحك . مستدركا أنه لا يعني أن اراها كأحد المدعوين ، ولا أقول ان ضحكته أفزعتني لانى كنت اسمع ولا أسمع ، وما أدونه الان لا أدرى كيف أتذكره ، المهم هو أن الحفلة بدأت بالفعل ، واصطفت فرقة شوكت في أماكنها ، بينما دخل المدعوون العنبر ، وانهالت عليهم الهراوات والصرخات تأمرهم بالتجرد من ملابسهم . ثم خرجوا مهرولين الى الحوش ، وشوكت في قمة تلذذه ، كأنه يشتهى مايراه ، أشتهاء جنسيا حادا ، وقد أنطلق وحوشه يفتكون بالضيوف العراة ، الذي يسقط فيركلونه بالاقدام ، ويدفسون بالهراوة في مؤخرته ، والذى تتهشم نظارته ، فيمشي كالاعمى يواجه الركلات واللطمات ، والذين يبولون على أنفسهم من هول مايلاقونه ، وهم لا يدرون مايفعلون ، والويل لذلك الرجل العريض الطويل ، لابد أن يركع ويخضع ، ويأمره شوكت في مرح ونشوة أن يصيح بأعلى صوته أنه امرأة . وترى كيف أن هذا الحشد ممن يقولون عنهم أنهم مثقفون وسياسيون وأبطال مجرد كومة هشة من اللحم والعظم الذى لا يساوي ثلاثة مليمات ، ويفهم كل واحد في السجن مكانه . السجان لم يعد يخشى هذا الافندى المتعلم ، بعد أن رآه عاريا راكعا صارخا

انه امرأة .. الضابط الصغير ، ينسى كل شيء عن تلك الافكار التي في رءوس هؤلاء المذعورين المنهارين ، وكذلك المساجين انفسهم يفيقون على هذه الصدمة من الحياة التي كانوا فيها منذ لحظات . والتي كانوا قد تعودوا عليها . النوم في فراشهم مع زوجاتهم ، وبين أولادهم بعضهم كان يسكن سرايات وقصورا ، ويملك سيارات فارهة فاخرة ، كانوا يستخدمونها في توزيع المنشورات والكتب ، كل شيء ينتهي في لحظة بفضل الحفلة ، العادات تتحطم ، دخول الحمام في الصباح ، وحلق الدقن امام مرآة وحوض في حمام من القيشاني ، دخول الافطار له في السرير وشرب الشاي مع قراءة جرائد الصباح ، الكلام في التليفون ، اختيار رباط العنق المناسب ، والخروج الى الشارع ، وضجة الحياة وطعمها الخاص ، كل هذا ليس من السهل أن تتخلى عنه فجأة وفي يوم وليلة ، تجد نفســـك على برش في زنزانة ، ولتساعدهم على مواجهة الحقيقة ، والاعتراف بالواقع الذي اصبحوا فيه .. لابد من وضع الحديد في أيديهم ، وربطهم في سلاسل ، لابد من خلع ملابسهم المدنية فورا ، ويبدأون الحياة الجديدة عراة كما ولدتهم امهاتهم ، انهم يولدون من جديد ، بملابس جديدة ، ومظاهر جديدة ، والى جانب هذه المظاهر ، هناك ماهو اهم ، وهو مافي داخل نفوسهم ، لقد تعودوا على اسلوب معين في التعامل ، شغل المثقفين لا مؤاخذة ، مناقشات ، وآراء وافكار ، وكل كلمة تقولها يردون عليها بعشر كلمات ، وكل واحد يظن أنه زعيم كبير ، ولابد من ضرب هـذا الوهم ، واذا لم تضربه فورا ، وتخلصه منه ، فسوف يتعـــذب نفسيا عذابا بطيئا لارحمة فيه ، سيصبح كالمجنون تماما ، يجلس على خازوق ، ويتصور انه بطل ، لذلك لاتظن أن مانفعله قسوة ، أبدا، هؤلاء ناس ماتوا وانتقلوا الى حياة أخرى هي حياة السجن ، ولابد أن يتأكدوا بمظاهر مادية محسوسة من أنهم في السجن ، وأن هناك من هو أقوى منهم ، وقادر على اخضاعهم ، والبطش بهم في اية لحظة ، انه نفس المنطق الذي يقوله ابن البلد عندما يذبح قطة ليلة زفافه أمام عروسه ، حتى تعلم من الليلة الاولى ، انه قادر على ذبحها مثلما فعل بالقطة ، اذا لعبت بذيلها أو زاغت عيناها هنا أو هناك .

ان زهدي يتصور — هكذا ببساطة — ان هذه الافعال طبيعية ، وانها من أصول مهنته ، هي جزء من فن ادارة السجن ، قال ان هذه المعاملة التي يعامل بها المسجونين السياسيين لا تختلف عما يحدث في الجامعات الاوربية والامريكية ، عندما يدخلها الطلبة الصـــغار

لاول مرة ، فيهجم عليهم الطلبة الكبار فى حفلة استقبال ويشبعونهم ضربا وبهدلة ، ويعاملونهم بقسوة ويمزقون ملابسهم او يضربونهم بالشبلاليت ، أو يكلفونهم بالقيام بأعمال مهينة ، كل هذا حتى يفيق الصغار القادمون من احضان أمهاتهم ، ويتخلصوا من طفولتهم الكامنة فى نفوسهم ، ويتحولوا بهذه العملية التى ظاهرها القسوة وباطنها الرحمة الى رجال ، وطبعا كان الذى يهمه من هذه المقارنة هو فلسفة التغيير بطريق الصدمة بصرف النظر عما اذا كان تغيير اطفال ليتحولوا الى رجال ، أو تغيير رجال ليتحولوا الى كومة لحم وعظم لا تساوى ثلاثة مليمات ، ثم انطلق يروى لى مقدمات القتل ، فقال أنه شخصيا لا يتدخل للضرب بيده ، ورغم طول السنوات التى قضاها فى الخدمة سواء فى الاقسام أو السجون ، فانه لم يضرب احدا ، لا فى قسم شرطة ، ولا فى سجن ، لانه من المدرسة التى تعتمد على الهيبة ونفوذ العقل والذكاء ، ولا تحتاج الى استخدام القوة المادية لمواجهة المجرمين العتاة ، تكفيه نظرة او كلمة ينطقها بلهجة خاصة ، وبصوت من طبقة معينة ، حتى يرتجف المذنب وينهار ، والمسألة فى نهاية الامر مسألة تخصص ، فاذا احتاج الى استخدام الوسائل المادية ، فهناك المتخصصون فى ذلك ، وعلى رأسهم شوكت ، رغم أنه هو أيضا لا يمارس الضرب بنفسه ، ولكنه يجيد تدريب رجال فرقته على هذه المهام ، ويكتفى هو بالتلذذ برؤية الرجال ، يفقدون رجولتهم ضربا ، أو اذلالا ، أو اعتداء عليهم . مرة أو مرتين ، وجد فيهما زهدى نفسه مضطرا الى أن يضرب بنفسه ، عندما تبلغ وقاحة المذنب حدا لا مفر فيه من مواجهته ببطش مباشر فورى . ولكن العملية لا تتم بانفعال ، فهى تحتاج الى خبرة وحنكة ، وتمهيد وترو ، فأكبر خطأ تقع فيه هو أن تضرب وانت منفعل ، فى هذه الحالة تكون قد وقعت فى الفخ ، لان انفعالك يجعل منك ندا للمضروب ، وهو اعتراف ضمنى بانه هزك أو جرحك فأغضبك ، واثر فيك ، وهذا لا يصح ولا يجوز ، ان المذنب حقير فى أسفل سافلين ، وهو لا شىء ، فكيف يؤثر هذا اللاشىء فى الرجل الذى يتحكم فى مصير ، غير معقول ، لذلك يحتاج الامر الى هدوء ورزانة ، وعندما ضرب زهدى ذلك الولد الوقح الذى كان يظن نفسه قادرا على تحدى الاوامر ، وينظر فى وقاحة الى من حوله ، مستهينا بهم ، وكأنه لا يهمه شىء ، قرر أن يفعل ذلك حسب خطة مدروسة ، فاقترب من الولد الشقى ، ثم وقف أمامه غير ملتفت اليه ، وتعمد أن يتحدث بصوت هادىء جدا مع ضابط زميل له فى

القسم ، وأثناء ذلك ، كان يرفع قامته ، ويجمع ارادته ، ويركز كل تفكيره في الضربة التي سيوجهها ، ثم التفت الى الولد يرشقه بنظرة حادة متعمدا أن تكون عيناه مصوبتين فوق عيني الشقي ، ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة .

وقال له : باه انت موش عاجبك الحال هنا ، وقبل ان يجيب الولد ، رفع زهدي يده مشيرا الى شيء ما في سقف الحجرة ، مخاطبا زميله الضابط ، وكأنه لا يعنيه ماسوف يسمعه من وقاحات الولد ، وفجأة وبسرعة خاطفة ، منتهزا فرصة أن الولد رفع عينيه متتبعا اشارة يده الى السقف ، وجه اليه ضربة ساحقة بكف يده على خده .

وهنا يجب أن تلاحظ أن هذه الضربة تحتاج الى مهارة فنية ، فلو هبطت بكفك على خد الزبون واستقر الكف طويلا على الخد ، فالضربة تفقد قدرا كبيرا من قدرتها ، لابد أن تضرب بطريقة الرج ، أي تهبط الكف بكل ثقلها على الخد وفي نفس الوقت لا تستقر ، بل تحدث رجة وانت تسحبها بسرعة ، هذه الرجة فيها كل الفائدة . وهكذا تكوم الولد ساقطا على الارض ، الضرب فن دقيق ، ويتطلب من الشخص الذي يمارسه قدرة كاملة على التحكم في أعصابه .

هذه قاعدة اساسية من يخرج عنها يعرض نفسه للوقوع في أخطار حتى لو كنت تضرب امرأة ، وهو يعرف طبعا أن الرجل الحقيقي لا يضرب المرأة . الا اذا كان من باب المناغشة وتهيئة الجو ، فهناك بين النساء من يتلذذن بالضرب ، وبينهن مالا ينصلح حالها الا اذا اكلت العلقة الساخنة .

وتاديب المراة بالضرب امر معترف به شرعا ، اكسر لها ضلعا ، يخرج لها مكانه ضلعان .

ذات يوم ضرب زهدي تلك المراة الضخمة القوية منيرة بيجو ، كانت تظن أنها تستطيع أن تضحك عليه ، ولكنه قطع حديثه عن منيرة ومضى يقول أنه أسهب في شرح حكمة الضرب وفنونه ، ليضعني في الصورة ، ولافهم كيف حدث ذلك الذي حدث ، وانتهى بمقتل والد « تو » .

فقد كان السبب المباشر لمقتله ، هو انفعال شوكت ، رغم ان هذا كان أمرا غير محتمل الوقوع ، لولا أنه انهمك في تلذذه ، ونسي نفسه وهكذا شاءت الظروف أن تقع الواقعة .

الفصـــــل الخامـــس

كانت الحملة في ذروتها ، الاجساد العارية تتساقط في الحوش تحت ضربات العصى ، ثم تنهض مسعورة لاهثة ينهشها الفزع ، لتسقط من جديد ، والواحد منهم ، يركع تلو الاخر عند قدمى الحلاق الذى يحلق له شعره . وكان البعض قد تسلم بالفعل ملابس السجن واسرع يرتديها ، وقد أصبحت بالنسبة له ، فى تلك اللحظة ، نعمـة تهبط عليه من السماء ؛ وملاذا يحتمى به من الهول الذى رآه . وكان زهدى قد بدأ يشعر بالملل ، فقد شبع وحصل على كفاته ، وكان ينظر فى ساعته بين لحظة وأخرى ، وهو يفكر فى اللحاق بأصحابه فى المعادى ، ليشرب له كأسين حان موعدهما ليتم الانسجام ويكتمل المزاج ؛ وهو يعترف بأن المشهد الذى رآه ، قد حرك غرائزه ، فراودته رغبة جامحة ، فى أن يفاجىء اصحابه فى المعادى وهم سكارى ، فيطيح بهم كما يشاء ، وأن ينتهز الفرصة فيصفع كل واحد منهم على قفاه ، كان زهدى وهو يتحدث عن أصدقائه على هذا النحو ، يؤكد لى مرة أخرى ، انى أمام رجل لايستطيع أن يتعامل مع الاخرين ، ولا يعرف كيف يعبر عن نفسه ، الا من خلال تبادل الشتائم والاهانات وقد علمنى زهدى انه اذا كان للانسان تلك الافاق السامية الرحيبة من الكرامة وعزة النفس والمثل العليا ، وهى مجالات لا يستطيع أن يصل اليها حيوان آخر غير الانسان ، فان الانسان أيضـــا عنده استعداد للهبوط الى هوة سحيقة من الانحطاط والسفالة والحقارة ، يعجز الحيوان ، بل تعجز الحشرة الدنيئة ، عن التردى فيها . فلا أظن أن صرصارا يتلذذ بضرب صرصار آخر على قفاه ، ان فى نفوسنا نحن البشر طاقات من الخير والشر ، والنبل والسفالة ، والسـمو والحقارة ، بحيث أصبحت حياتنا فى كل لحظة ، مسرحا لمعارك لاتنتهى بين النقيض ونقيضه سواء كانت المعارك من حولنا ، أو داخل نفوسنا . على أية حال ، لم يات بعد الوقت الذى ارثى فيه البشر ، والاجدر بى أن أمضى فى تسجيل المعلومات ، فبينما كان زهـدى يستعد لانهاء الحفلة ، كان شوكت يتابع المشهد بكل حواسه وجوارحه

وهو يتمايل بجسده طربا . وكان الانين والصراخ وصوت ارتطـام الهراوات بالعظام ، ولهاث الضاربين والمضروبين موسيقى حارة دافقة قد استولت عليه كما تستولى دقات الزار على امرأة ركب جسدها عفريت . وأدرك زهدى أن الصعوبة الحقيقية فى انهاء الحفلة ، هى فى افاقة شوكت من نشوته . وهو الوحيد القادر على اصـدار الاوامر لوحوشه بالتوقف ، فقد انتشى هؤلاء الوحوش باللحم والعظم الذى يفترسونه ، واهاجتهم صرخات الالم ونافورات الدم التى تنبثق هنا وهناك . وأدار زهدى بصره فى جولة فاحصة لمسرح الحفلة ، وهو يجمع قواه ، ليتخذ قراره بأن يتدخل لدى شوكت ويقول له كفى . وهنا حدث شىء لم يتبين زهدى حقيقته أول الامر ، فقـد وقعت عيناه على شخص يرتدى الملابس المدنية ، وكان واقفا ينظر فى هدوء الى مايجرى حوله ، وكان لا شأن له بالامر . ويقول زهدى ان تلك اللحظة مرت به فيما يشبه الحلم ، وهو يعجب كيف أن رجلا خبيرا مثله ، يرى ذلك الشخص فلا يفطن على الفور الى حقيقة أمره كان رجلا قصيرا ، ربعة ، له راس ضخم ، والتقت عينا زهـدى بعينيه ، ولم يحدث أن ظهر أى نوع من الخوف او القلق فى عينى الرجل ، لو كان زهدى قد شعر أن الرجل قد ارتبك لفهم فى الحال حقيقة الامر وهو الذى تعود أن ينهش اعماق المذنب وبهتكها بنظـرة واحدة . أن عينيه تشمان مثل انفه ، انها تشم رائحة القلق ، ورائحة الخوف ، حتى لو اخفاه من يعانى منه . كان الرجل يرتدى بدلة بنية وقميصا سكروته ، ورباط عنق أخضر ، ويقول زهدى سـاخرا من نفسه ، ان كل الذى جلب انتباهه فى تلك اللحظة ، هو رباط العنق الاخضر ، فقد فكر فى انه رباط أنيق ، وتساءل ترى من أين يكون قد اشتراه . مجرد تساؤل عابر ، انشغل بعده تماما بما يجـرى أمامه من أحداث كانت تبدو لحظتها اكثر اثارة وصخبا . وكـان شوكت يقف على بعد مترين من زهدى ، منغمسا فى ملذاته واعجابه بوحوشه المدربين والعرض الباهر الذى يقدمونه . ولعله هو الاخر قد رأى ذلك الرجل ذا رباط العنق الأخضر فلم ينتبه اليه . هـكذا شاءت الاقدار ، أن تدخر مفاجأة لنهاية الحفل ، ليست فى حسبان احد ، فمن كان يتصور شيئا خارقا وغير عادى الى هذه الدرجة ، هل يعقل أن يكون وسط هؤلاء العرايا ، شخص رفض أن يخلـع ملابسه ، هل يعقل أن يكون هناك من فكر فى تحدى الهراوات والاوامر الهادرة ، أن تصور هذا أمر مستحيل ، فما الذى يستطيع أن يفعله

هذا الاحمق امام هذه القوة الرهيبة وهو أعزل لا حول له ولا قوة .
لو فكر لحظة ، لعرف أن فعلته هذه سوف تنتهى بسحقه تماما ، وأنه سيلقى من الاهوال ما يجعله يتمنى لو لم يولد أبدا . ومع ذلك فقد نجح في خطته لبعض الوقت . لان الجميع ، من العساكر والضباط لم يخطر ببالهم أن هذا رجل لا يذعن للاوامر ، أن الامور كانت تجرى حسب الخطة الموضوعة ، وحسب البروفة المتقنة التى أجراها شوكت ، ولم يضع أحد فى حساب الخطة ، ولا فى البروفة ، أنه عندما تصدر الاوامر لهم بأن يخلعوا ملابسهم ، ان واحدا سوف يتخلف ، طبعا كان المتوقع أن يترددوا أو يتلكأوا ، فاغلبهم لم يخلع ملابسه ويقف عاريا فى مكان عام من قبل ، ولمواجهة التردد ، يبدأ الضرب فورا فى نفس اللحظة التى تصدر فيها الاوامر ، وعندئذ ينصاع الجميع ، وهكذا اندفع رجال شوكت يضربون كل العراة ، الذين يحملون فوق رءوسهم كومة الملابس المخلوعة ، أصبح الهدف واضحا ومحددا ، وهو اللحم العارى ، والاذرع الممتدة فوق الرءوس والسيقان المرتعدة ، والاجساد المذعورة القافزة فى الهواء أو الساقطة على الارض . أصبحت كل العيون وكل الايدى القابضة على الهراوات تجرى بطريقة آلية مطاردة هذه الاهداف المحددة والمتفق عليها . لقد سقط الجميع فى اطار الحفلة ، بشقيها : فرقة الضاربين ، وجماعة العراة المضروبين . ولذلك لم ينتبه أحد الى وجود هذا الشخص الذى ظل خارج الاطار المرسوم ، وكان من الممكن فى مثل هذه الظروف المحمومة الا ينتبه اليه أحد حتى نهاية الحفل . وكان من الممكن ان يتدبر امره بعد ذلك مع سجان يعطف عليه . وينضم الى زملائه محتفظا بهيبته ، وان كان هذا أمر يصعب تصوره وفهمه ، ولكن ماذا تقول أمام تصاريف القدر وألاعيبه الغريبة ، التى جعلت الجميع لا يبصرون مايرون امامهم .. وتقدم زهدى وامسك بيد شوكت وهزها ، فلما انتبه اليه ، نظر اليه بعينين مفعمتين بالسرور والامتنان ويقسم زهدى أنه رأى فى عيني شوكت ولها وحنانا انثويا ، وقد مد يده تضغط على يد زهدى وتفركها كأنه يدعوه دعوة صريحة الى فراش .. فلم يتمالك زهدى الا أن يهمس فى أذنه واصفا اياه بحقيقة أمره ، فغمز له شوكت بعينه ، فقال له زهدى انه قد آن الاوان للانتهاء من هذا الامر كله ، فبدا على شوكت الاسى ، والاستعطاف ، قال له زهدى أنهم هلكوا ، وأن رجاله قد نالهم التعب ، وكان شوكت يهرب بعينيه حتى لا يسمع ، وفجاة اعتدل فى وقفته ، وتسمرت عيناه فى

اتجاه واحد لايتغير ، وشحب وجهه وفتح فمه في غباء ، ونظر زهدى في نفس الاتجاه ، فرأى ذلك الرجل القصير الربعة .. الضخم الرأس ، ذا البدلة البنية ورباط العنق الاخضر . وعندئذ فقط ، فهم زهدى ، وأدرك دفعة واحدة سر الرجل .. وكان أول ماقاله بينه وبين نفسه أن هذا الرجل قد مات بالفعل .. ورغم أن شيئا لم يحدث بعد ، فقد شعر بانقباض . وفى نفس الوقت نشط عقله . وقد هاجمته دوامة من الصور .. كان يرى الرجل صريعا ، وكان يرى أصحابه في المعادى سكارى . وكان يرى شوكت شاحبا واجما وكان انقباضه يحدثه حديثا هامسا بأن هذه الليلة لن تنتهى على خير ، وقبل أن يتخلص من هذه الدوامة ، رأى شوكت يتقدم ببطء نحو الرجل ، ولم يستطع أن يتحرك وراءه ، ظل جامدا مكانه يرقب الرجل وهو يصوب نظرات ثابتة جسورة ، في اتجاه شوكت ، كان الوقت قد فات لمن يحاول أن يمنع الصدام ، ثم يعود زهدى ويقول بصراحته الحيوانية ، انه كان يترقب هذا الصدام بشغف ، وكأنه ، لو تدخل ، سوف يحرم من متعة نادرة ، تفوق متعة سماع أم كلثوم في حفلة من حفلات العمر . نظرات الرجل ، وذلك الفصل العجيب الذى اقدم عليه ، جعل من لقائه بشوكت مباراة مثيرة ، انك لاتستطيع أن تفسد مباراة الموسم بين الاهلى والزمالك ، أو توقف بطولة العالم بين محمد على كلاى وجو فريزر ، قال زهدى انه بعد مضى كل هذه السنوات ، لا يريد أن يخدعنى ولا أن يخدع نفسه . وانه كان يتمنى أن يحدث الصدام ، وأن يتمتع بحدوثه ، وان كل ماكان يخشاه هو احتمال انهيار الرجل بسرعة أمام شوكت ، وأن هذا الانهيار سوف يكون مخيبا لتوقعاته في الحصول على مزيد من المتعة والاثارة ، وهى متعة فيها ايضا رغبة في الانتقام والاثارة ، وهى متعة فيها أيضا رغبة في الانتقام والتشفى من هذا المخبول الذى تحدى هيبتهم .. لابد أن يسقط ، وان تهشم أنفه في أرض الحوش ، وسوف يكون جسده المربع ورأسه الضخم الذى يشبه كتلة الصخر ، شيئا مناسبا لتلقى ضربات الهراوات وركلات الاقدام . كان شوكت قد وصل الى الرجل ، وعندئذ فقط تقدم زهدى خطوات ، ولكنه ظل محتفظا بمسافة كافية بينه وبين الرجلين . والغريب أن أحدا من رجال شوكت لم ينتبه حتى تلك اللحظة الى مايجرى وما سوف يحدث . وزملاء الرجل كانوا في حالهم وليست لديهم أدنى فرصة ليدركوا شيئا غير الذى يلاقونه في المعمعة .. ومضت لحظات ، وشوكت واقف يتأمل الرجل

وليس بينهما أكثر من شبرين : العين فى العين .. وقد ثنى شوكت وسطه فى وقفة متخلعة ، والرجل لا تتحول عينه عن شوكت ، لا يهتز له رمش .. وقد ظهر الان أنه كبير فى السن ، يبلغ الخمسين من عمره ، شعره أشيب ، وصدق حدس زهدى فى انه من المدرسين فقد اتخذ مظهر ناظر يقف فى فناء مدرسة . ولا يعجبه مايراه .. شىء غريب حقيقة ، لم ير زهدى مثيلا له ، مع طول خبرته فى معاملة أعتى الاشقياء ، والسفاحين . نظرات ليست شريرة ، ولكنها تستفزك بما هو اكثر من الشر ، وكان شوكت يثنى جسده الى اليمين فاعتدل وانثنى ناحية الشمال وخرج صوته ناعما متكاسلا .. صوت ثعبان أرقم يخدر فريسته قبل أن يلدغها اللدغة القاتلة .

سأل شوكت :

ـ اسمك ايه ؟ !

ونظر الرجل نظرة طويلة حادة ، وحرك شفتيه ، وقال اسمه بصوت خفيض .

وعاد شوكت يسأله بنعومة اكبر :

ـ اسمك ايه ياشاطرة ؟ !

ولم يحول الرجل عينيه عن شوكت ، ولم يقل شيئا .

فالتفت شوكت الى زهدى قائلا فى ميوعة يعرف أنها مقدمة لكل الشراسة التى يمكن أن يتخيلها انسان .

ـ شوف يازهدى .. الحلوة دى مكسوفة موش عايزة تقول اسمها .

كانت تلميحات شوكت تنبىء بشر مستطير ، ووجد زهدى نفسه لا يحتمل ماقد ثار فى مخيلته من توقعات ، فصاح بصوت كالرعد .

ـ اسمك ايه ؟

واذا بالرجل يقول بصوت قوى :

ـ أنا قلت اسمى .

كان صوته متحديا مستفزا ، ان دل على شىء ، فعلى غباء مطلق ، وعدم فهم لحقيقة الموقف الذى هو فيه ، والعواقب الوخيمة التى سوف تنجم عنه .. لقد قال الله سبحانه وتعالى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » لو عرف الرجل نوايا شوكت وما يستطيع أن يفعله به لانهال على قدميه تقبيلا لحذائه ، ولكنه كان غبيا بليدا .

وعاد شوكت يقول بصوت فيه نبرة حادة :

ـ هنا ياشاطرة .. لازم تسمعى الكلام ولما تجاوبى تقـولى يا أفندم .

وقبل أن ينتهى من كلماته ، كان قد رفع يده وهوى بصفعة قوية مدوية على ذلك الوجه العنيد الذى تلقى الصفعة فى بلادة غريبة .

وعاودته نعومته وكأنه لم يفعل شيئا وقال :

ـ عايز أسمع صوتك . اسمك ياحلوة وتقولى يا أفندم .. فاهمة .. علشان أحمر لك خدودك .. واحط لك روج .. وتبقى عروسة . حلوة .

كان الرجل يسمع ولا يبدو عليه أى أثر للخوف ، لم يتراجع ، لم يهتز ساعداه ، استعدادا لدرء صفعة جديدة ، لم يفعل شيئا على الاطلاق ، واكتفى بنظراته الثابتة ، التى أصبحت أكثر نفاذا ، وكأنها تتفرج على شوكت ، أو هى موجهة ألى منظر مجهول .

وارتفع صوت شوكت :

ـ انتى سامعانى .

ومد يده ، ولم يصفع الرجل ، بل ربت على خده فى حنان .. وهو يردد :

ـ انتى وحشة ، وسايقة الدلال ليه ياللا قولى اسمك .. وقولى يا أفندم .

وانهال عليه شوكت بصفعتين سريعتين متتاليتين ، والرجـل لا يتحرك ، ولا يرفع يده ليدافع عن نفسه ، وكأنه لا يسمع شيئا ، ولا يشعر بشىء على الاطلاق .. كأننا غير موجودين . كان كل مايجرى أمامه لا صلة له به .. اللعين الوقح ، كان لابد من كسره واذلاله ، والا ضاعت هيبة الجميع ، ولم يعد زهدى قادرا على اتخاذ موقف المتفرج الذى يشهد مباراة كرة قدم أو يسمع أم كلثوم .. هذا التحدى للسلطة لابد من قمعه وسحقه ، هذا الكلب لايريد أن يتعامل معهم ، لا يريد أن يستسلم ، يتوهم انه وهو اعزل ، قادر على مواجهة هذه القـوة الرهيبة التى تقف أمامه .. قال زهدى وقد رأى أن الامور سـوف تتعقد :

ـ سيبهولى ياشوكت .

كان زهدى قد اعتزم أن يفض الحفل وأن يتدبر أمره مع هـذا الرجل على انفراد فهو كرجل محنك يفضل أن يتم مثل هذا التدبير أمام أقل عدد ممكن من الشهود وربما الافضل الا يكون هناك شهود على الاطلاق .. ومن المهم جدا ، وفى كل الاحوال ، الا يتنبه أحد من

الآخرين الى مايحدث .. لو تنبهوا فسوف يلتهب الجو وسوف تتعرض حياة زهدى وشوكت للخطر . تصور هذا الغباء والعناد ينتقل الى الاخرين ، فيثورون ويهجمون على العساكر ، أن الحيوانات الجريحة تكون شرسة الى أقصى حد ، وهى مسألة نفسية وبمجرد ان يقرر واحد منهم أن يبيع عمره فالعدوى تنتقل الى الجميع ، ومعنى هذا ان تتحول الحفلة الى مذبحة ، ودماء تسيل حتى الركبة ، وسين وجيم ، وفضيحة لا نعرف الخلاص منها . ويضيع مغزى الحفلة ، ولكن شوكت ما كان ليسمع كلام زهدى .

كان الامر بالنسبة له أفدح واخطر من هذا كله ، أهم شيء عنده كان أن ذلك الرجل قد أفسد عليه تشوقه ، وقطع عليه شهوته وهى فى اكتمالها ، وما كان لشوكت أن ينهزم امام هذا التحدى ، وهو الذى يعيش بفكرة واحدة ثابتة يقيم عليها حياته ، ويستمد منها شهرته ووظيفته ، وهو أنه مخلوق كل مهمته فى الدنيا القضاء على هذا الشيء الذى أسمه رجولة ، وان هذه الرجولة وهم ، ونكتة يخدع بها الناس أنفسهم .. وهو فى قرارة نفسه يؤمن حقيقة بذلك ، ويعتقد أنه مامن رجل يستطيع أن يصمد أمامه ويفتح عينيه فى عينى شوكت قائلا له ، أنا رجل ، وأنت لست رجلا .. حتى زهدى كان يخشاه وكل الذين يتعاملون مع شوكت يخشونه فهم يستخدمونه كما يستخدم أصحاب السيرك حيوانا شاذا مفترسا ، يقدمون له الطعام ، والرعاية ، ويستعرضون شراسته ويخشونها فى نفس الوقت ويحترسون منها .. ذات مرة قال ضابط كبير لزهدى ، انه أفاق ذات ليلة فزعا على كابوس رأى فيه شوكت فى صورة امرأة غولة تطارده ، وبعد أن ضحكا ساخرين من هذا الحلم الغريب ، قال الضابط لزهدى مهموما وقد استغرقه تفكير ذاهل ، أنه أحيانا يفكر فتشط به الافكار ، مع التقلبات السياسية التى تحدث وما يصاحبها من عزل وفصل واعتقالات ، فيخشى أن يأتى يوم يجد فيه نفسه تحت براثن شوكت . واتفق زهدى مع صديقه الضابط ، أن شوكت سيكون فى قمة سعادته ، لو اتيحت له الفرصة لان يفتك بأحد من زملائه أو رؤسائه ، فكلما كان الرجل صاحب هيبة أو نفوذ ، كان ذلك أدعى الى تألق شوكت وازدهاره عندما تتاح له فرصة افتراسه . ان شوكت يسمع باستمرار « فلان عامل راجل هاتوله شوكت » .. « فلان لايريد أن يعترف ابعتو له شوكت » ، ويأتى شوكت ، لينفذ المهمة ، وليثبت لنفسه أولا وقبل أن يثبت لاحد

آخر ، أن هذا الذى يظن نفسه رجلا ، كان كاذبا واهما يستحق ان يفيق من أوهامه ، وأن يخضع ويركع ويهان ، وانه يقف صارخا من الهول أمام الشهود ، انه امرأة .. وهكذا يشعر شوكت بالراحة ، وتنسجم نفسه ومشاعره الدفينة مع ماحوله من مشاعر ونفسيات . لذلك كان نداء زهدى محاولة ميئوسا منها ، فما يواجهه شوكت فى هذا الرجل القصير الربعة ذى الراس الضخم ، ليس تنفيذ تعليمات ، ولا اشرافا على مساجين وتأكيد النظام بينهم ، ان مايواجهه هو معنى حياته كلها ، فاما هو ، واما هذه الكتلة الصامدة التى يعلوها الشعر الاشيب والتى تنظر اليه بعينين غير خاضعتين .. أن صمود ذلك الغبى هو التحدى المستحيل لشوكت ، الذى تورط فى المواجهة ولم يعد هناك مهرب منها .

صاح شوكت وقد غلبه الانفعال على غير عادته :

ـ قول أنا مره .

وجعل يردد الطلب صارخا ، ثم انفجر فاقدا صوابه فانهال على الرجل بالصفعات واللكمات والركلات فى بطنه وفى قصبة ساقه .. والرجل كأنه لا يحس ، لاشك أنه رغم تقدم سنه كان يتمتع بقوة جسدية لا بأس بها ، وكان يتمتع بقدرة تحمل عجيبة ، فمن الذى يحتمل كل هذا ، دون أن يدافع عن نفسه ، ولا يصدر عنه تأوه أو أنين او أى شىء . وكان شوكت لين الجسد ، فيه طراوة .. ولم يتعود على الضرب ، فلم تحتمل يداه وساقاه ما أقدم عليه من عنف ، وشعر بألم شديد فى ذراعيه وساقيه ، فصاح بالرغم منه بعد ركلة وجهها الى ساق الرجل .. وكان صوته أشبه بالولولة .. لفت أنظار وحوشه الذى تركوا ماكانوا فيه واندفعوا الى شوكت ليتلقفوه مع زهدى وهو يترنح ، حتى استعاد توازنه ، فواجه وحوشه يسبهم ويشتمهم ، معلنا أنه سينزل بهم أقصى عقاب ، لانهم تركوا هذا .. مشيرا الى الرجل . كيف لم يخلع ملابسه ، كيف لم يضربوه .. كيف لم يهتكوا عرضه .. كيف .. وكيف .. كان الوحوش يستمعون فى ذهول ، ولا أحد منهم يجرؤ على الاقتراب من الرجل ، ولعلهم لم يفهموا كلام شوكت أو تشككوا فيه ، حتى صرخ فيهم أن يهجموا عليه . فتقدم واحد وضربه بهراوة على ذراعه ، وامره أن يخلع ملابسه .. فلم يتحرك الرجل .. فصاح شوكت ..

ـ مزقوه .

وانهالت الضربات ، بطيئة اول الامر ، ثم اشتدت ، وتدافعت ، ولم يعد أحد يدرى ما الذى يضربه ، الكل محيط بالرجل وهراوة ترتفع وهراوة تهبط ، وهراوتان وثلاث وعشر هراوات ، ترتفع وتهبط ، وتضرب وتضرب وتضرب ، وأصوات ارتطام مكتومة ترتد من الجسد المربع القصير ذى الراس الضخم ، والدم ينبثق وينثال على وجهه وصدره ، وفقد زهدى قدرته على التفكير ، وتخلت عنه خبرته ، وغرق فى المشهد واللحظة ، وقد تركزت فى صدره رغبة واحدة وكأنها امنية العمر ، لو كان يملك لنذر للسماء شيئا لتتحقق الامنية ، أن يسقط هذا الجسد القصير المربع ذو الراس الضخم على الارض ، لم يعد الجسد جسدا .. لا قصيرا ولا مربعا ولا رأسا ضخما . تحول الى شىء غامض تحقد عليه ، يتحداه ويهينك بصموده، وعدم سقوطه ، ولا يدرى زهدى ما اذا كان قد اشترك فى الضرب فى تلك اللحظات التى كان لا يحكمها عقل ولا تدركها حواس . فكل ما كان يجرى كان مختلطا مضطربا ، وهو لم يتبينه ولم يتذكر تفاصيله ويسترجعها الا فى مناسبة يصفها بأنها كانت عجيبة . ويخيل الى انه يكذب وهو يستحضر هذه المناسبة . ولكنه يريد منى أن استمع الى المشهد الختامى ، بعد أن يأخذنى من يدى الى مكة والمدينة المنورة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، هل هو يخدعنى . أم يخدع نفسه . على أية حال يكفينى أن أسجل الان الصورة كما قدمها لى ، لقد وقف أمام شباك النبى فى المدينة المنورة ، يطلب وساطته فى قبول التوبة عند الله ، وأن يغفر له ذنوبه ماتقدم منها وما تأخر . وانهمرت الدموع من عينيه — هكذا كان يقول لى — بصوته الفاجر ودون أن يبدو عليه اى مظهر للتأثر الحقيقى . وكأنه يعتقد انى سوف أصدقه لمجرد أنه يرفع صوته بالكلام .. المهم انه يقول ان دموعه غسلته وطهرته ، وانه كان يرى الذنوب التى ارتكبها قائمة مصورة فى عينيه وهو يبتهل ويتوسل فى حضرة سيد المرسلين ، كل ذنب مهما صغر او كبر ، أهمها ماكان يصدر منه نحو امه من الفاظ وتصرفات .. فهذه كان يراها فتهطل دموعه كالمطر المنهمر ولا تغسلها الا بصعوبة .. وكان من بين ماراى ذلك المشهد الذى كان يتمناه فى ليلة حفلة السجن ، مشهد سقوط الرجل .. وعرف أنه كان يتمنى سقوطه حتى يتخلص مما يلاقيه من عذاب .. والذى عرفه زهدى فى تلك الصورة التى رآها من خلال دموعه فى الحضرة الشريفة ، هو أن الرجل مات واقفا

وأن جسده المربع احتفظ بتوازنه لفترة من الوقت فلم يسقط، وعندما سقط الجسد ، كان بسبب ركلات فى بطن الركبة ، فانثنت الرجل ، فتداعى الرجل على ركبتيه وجسده قائم منتصب ولكنه كان ميتا .

وكانت الضربات والركلات مازالت تلاحقه ، لأن عينيه ظلتا مفتوحتين تنظران فى جمود واستخفاف ، ولا أحد يدرى أنها نظرات موت . ثم سقط الجسد على الارض . ويعتقد زهدى أن الله قد غفر له تماما هذه الجريمة ، التى يتحدث عنها ، وكأنها خطأ فنى وقع فيه ، وكانت له نتائجه السخيفة التى مازال يعانى منها .. ثم أراد عند هـذه المرحلة من الحكاية أن يتوقف ، وأن يتحدث معى عن تو .. وتلك الحالة الهستيرية التى تتملكه ، فتجعله يتحدى رجال الشرطة ، وقال لى انه لم يسمع بها من قبل .. ونظر الى فى حذر لا اظن انه كان موجها الى ، ولكنه حذر مما قد يكون فى رأسه من خيالات وتوقعات عن « تو » .. اذ قال فجأة :

ــ الولد .. أنا أعامله وكأنه ابنى تماما .

وخيل الى انى اسمع نكتة ، فابتسمت على الرغم منى ، فما هذا السمك اللبن التمر هندى ، ما هذا الجنون والاختلاط فى المشاعر ، الذى يعانى منه زهدى ، بحيث أنه يعترف لى بأنه أشرف على قتل والد تو ، ثم يختتم الاعتراف بأنه يعامل ابن القتيل كأنه ابنه .. مرة اخرى ايقنت أنه كاذب ، وهو اما يكذب على وحدى أو يكذب على نفسه أيضا .. وهذا احتمال بعيد .. فهو أشد فجورا من أن يخدع نفسه ، وما حديثه عن التوبة والحج وقبر الرسول وابوته لتو ، الا صور يتحلى بها ، ولكن أهميتها اقل بكثير عند رجل مثله ، من أهمية رباط عنق يراه فيعجبه ، سواء يراه فى فترينة دكان فيشتريه أو يراه فى عنق والد تو فيقتله .

ومع ذلك ، لابد أن أتروى فيما أقول ، ولعل الافضل الا أشغل نفسى بقضية زهدى الشخصية ، قبل أن أسجل تلك المواقف الغريبة التى تعرض لها بسبب مقتل والد تو .

لقد سقطت الجثة على أرض حوش السجن . فماذا بعد ؟

الفصل السادس

ان مقتل سجين ليس بالمسالة الهينة ، فكان لابد من التصرف بسرعة ، لقطع دابر الاشاعات والاقاويل . ولكن كيف يتصرف زهدى أمام عشرات الشهود ، اكثر من مائتى عسكرى وضابط وسجين ، كل من شهد الحفلة كان شاهدا لمصرع الرجل ، والشاهد أيا كان مصدر للخطر ، وأنت لا تضمن العساكر ، وماقد تلوكه ألسنتهم ، ومهما كان ولاؤهم ، فقد يصدر عنهم اى شيء ، أغلبهم جاهل يثرثر ، أو يتباهى او تنتابه حالة من حالات الشفقة والضمير ، كل الاحتمالات قائمة تفغر فمها ، كان العساكر هم الجانب السهل من الشهود ، أما الجانب الذى لا تستطيع أن تسيطر عليه ، والذى كان من المتوقع انفجاره ، فهو جانب المعتقلين ، ولا يمكنك أن تعالج المشكلة بأن تجمعهم وتحرقهم فى فرن كما كان يفعل هتلر وتتخلص منهم ، وأصر زهدى على أن افكر معه ، او على الاصح أن أتتبع منطق تفكيره فى موضوع هتلر ، وكانت وجهة نظره ان العقلية الالمانية صاحبة الامتياز الهائل فى التنظيم والدقة والانضباط لم تستطع أن تكتشف وسيلة لاخضاع المعتقلين أفضل من حرقهم فى الافران ، فما بالك ونحن فى بلد لا يعرف النظام ويعانى من الهرجلة والفوضى وضعف الضبط والربط لابد فى مثل هذه الحالة أن تنطلق الاشاعات وتنتشر الاقاويل هنا وهناك ، وتتحول الحبة الى قبة ، وتتضخم المسائل ، ولا يعانى من هذا فى نهاية الامر الا المساكين الذين تحملوا المسئولية على أكتافهم من امثال زهدى وشوكت ، والغريب أن زهدى كان يتحدث عن هتلر وكانه لم ينهزم ، ولم ينفضح أمره بسبب استخدامه الافران ، فمازال هتلر بالنسبة له ، هو هتلر العظيم ، الفوهرر الذى لايقهر ، أما كيف يتمسك زهدى بهذه الاراء التى تحطمت تاريخيا ، فامر محير لا استطيع تفسيره الا بجهله المطبق . وبعد أن حدثنى عن افتقاده للافران ، ذكر لى كيف أنه كان اسرع الحاضرين الى استعادة اتزانه بعد موت الرجل والذى ساعده على ذلك ، انه فوجىء بالانهيار الكامل الذى اصاب شوكت . فقد ظل يصرخ فى رجاله أن يرفعوا الجثة ، وهو مصر على ان الرجل مازال حيا ، وأنه يتحايل بالرقاد ، كان مغيظا يائسا ، يتلهف

الى رؤية الرجل وقد وقف من جديد ، وكان يتلفت حوله غير مصدق أن وحوشه المدربين يتراجعون فزعين مذعورين خوفا من جثة اكسبها الموت هيبة وحرمة . حتى أن الصراع نشب بين شوكت ووحوشه . فهو يصرخ فيهم : أوقفوه ، اجعلوه ينهض . فيتقدمون نحو الجثة خائفين من صرخات شوكت ، ثم مايكاد الواحد منهم يمسك بالجثة ، فيجدها متصلبة تجمدت الدماء عليها ، حتى ترتعش يده ، ويهمس « الرجل خلص » ، فيجن شوكت ، ويشتمهم ويهجم عليهم ، يدفعهم نحو الجثة دون أن يقترب هو ، وتكرر المشهد ، فلم يعد هناك مفر من أن يتنبه زهدى الى خطورة الموقف ، وكان حازما ، فأمر الجنود بضرب حصار على بقية المساجين الذين كانوا فى مرحلة وجوم وذهول ، مما عطل قدرتهم على التظاهر برد فعل سريع ، وأصبحت الدقائق لها قيمتها ، فأصدر الامر بادخال المساجين العنبر فورا ، وصاح فى نفس الوقت بأعلى صوته متعمدا أن يسمعه الى الجميع :

ــ أنقلوه الى المستشفى . .

وتقدم ثلاثة عساكر ، وحملوا الجثة ، وزهدى يتابعهم بصيحاته التى تعمد أن تكون مسموعة ، طالبا من العساكر أن يعودوا بالرجل الى الزنزانة ، بعد أن يعالجه الطبيب . كانت مئات العيون ترقبه ومئات الاذان تنصت اليه ، وكل كلمة يقولها الان ، سوف تسجل فيما بعد فى محاضر تحقيق . لابد أن يجهز الادلة التى تؤكد أن الرجل لم يمت امام أحد . بدليل أنه طلب نقله الى المستشفى لعلاجه بدليل أنه أمر بعودته فورا الى الزنزانة بعد انتهاء العلاج . لماذا سقط ؟ آه . . لقد سقط لان نوبة أصابته . نوبة قلبية . كانت الادلة تتزاحم فى رأس زهدى ، وكلها أدلة نفى لموت الرجل الذى مات ، لولا صراخ شوكت وانهياره ، الذى فقد عقله تماما ، لانه لم يتحمل أن يموت الرجل قبل أن يثبت لشوكت انه ليس رجلا . مقلب نظيف شربه شوكت وكانت فيه نهايته ، ولكنه من ناحية أخرى ساعد بتصرفاته الخرقاء على اقناع الاخرين بأن الرجل مازال حيا ، وامسك زهدى بيد شوكت وجذبه الى بعيد ، وقال له بلهجة حاسمة انه يجب أن يترك المكان فورا ، وان عليه أن ينتظره فى المكتب ، ونظر اليه شوكت فى هلع وقال مرتعدا :

ــ حاضر يا افندم . .

وأسرع يغادر المكان . وفى دقائق كان الحوش خاليا الا من واحد من السجانين كان يقوم بتنظيف الارض من بقع الدماء ، ويجمع ماوقع

فى ساحة المعمعة ، من ملابس وحطام نظارات . وطبعا كان لابد من تسوية الموقف بسرعة وقبل أن يطلع الفجر . تقرير من الطبيب الشرعى بأن الرجل مات بالسكتة القلبية . وتشريح الجثة ، واثبات عدم وجود كسور فى الجمجمة او الحوض ، يكفى أن يسجل التقرير بضـــع سحجات ورضوض نجمت عن سقوط الرجل اثر اصابته بالسكتة القلبية ، عملية ليس من السهل القيام بها ، ولكنها ممكنة ، ولقد قام بها زهدى على أحسن وجه ، ويعترف بأنه كان قلقا ، ولكنه لم يفزع ، فمثل هذه الحوادث متوقعة ، وهى تحدث أحيانا ، وإن كان غير مرغوب فيها ، والعرف السائد هو حماية من قام بالعملية ، والتكتم عليها ، وأفضل أسلوب للتكتم ، هو ان تأخذ الاجراءات مجراها ، المحاضر والاوراق والسجلات تستوفى ، بحيث يكون هناك تحقيق جاهز تحت الطلب ، يشرح أسباب الوفاة ، وهذا هو المهم ، أن تحقيقا قد أجرى ، وانتهى الى نتيجة محدودة ، تؤكد أنه لم يحدث خرق للقانون . ان الدولة لا تريد أن تفضح نفسها ، وهى تقدر أن الذى أقدم عليه شوكت وزهدى ، كان من أجل تأكيد سلطتها ، وضد أعدائها ، ولكن هذا لا يعنى الاعفاء من اللوم ، فالرؤساء لا يريدون المواقف المحرجة ، هذا فضلا عما فى حدوث الوفاة من دليل على عدم الخبرة بفنون الضرب ، ويعتقد زهدى أن هذا الاتهام بعدم الخبرة ، هو أخطر الاتهامات ، فهو أخطر من اتهامه بالشكليات كخـــرق القانون ، واستعمال القسوة ، وغير ذلك من الكلام الذى لا قيمة له من الناحية العملية . أن الذى يعنيه فى المقام الاول ، هو « الحرفنة » كما يقول ، ومقياسها بالنسبة له أن تضرب من تشاء وتفتك بمن تشاء ، وتسوم أى واحد كل ألوان العذاب ، بل وتصل به فعـلا الى حافة الموت ، ولكن دون أن يموت ، ودون أن تترك فى جسده آثارا فاضحة ، تشهد على الضرب والتعذيب . هذا هو الفن ، وهذا هو مقياس الخبرة والكفاءة ، وماعداه من حديث عن حقوق السجين ، والمعاملة الانسانية والقانون فكلام ساذج لا يصدقه الا السذج ، ولا يعترف به أحد فى أى سجن من سجون العالم . كان زهدى يقـــول فى انفعال : هل تصدق أنهم يعاملون المساجين فى امريكا معــاملة انسانية . ثم يصدر شخيرا من انفه ، ثم يسألنى : وهل يحدث هذا فى روسيا ؟.. ويصدر شخيرا أطول ، ثم يسألنى : هل يحدث هذا فى نيام نيام ؟ ثم يصدر شخيرا غريبا .. ثم ختم شرحه قائلا : حتى فى المعتقل الذى أعده ربنا سبحانه وتعالى للكافرين المذنبين ، هل

بعدهم بالمعاملة الانسانية . هل قرات وصف مايلاقونه من عذاب ، واسياخ محمية ونيران تشويهم ، اذن لماذا نخدع انفسنا ، ونقول ان المساجين يجب أن يعاملوا معاملة انسانية .. هذا كلام ساذج ، وكل ماهو مطلوب أن تكون المعاملة بفن وحنكة . المطلوب هو أن تعذب لا ان تقتل . تماما مثلما يحدث فى الجحيم ، تعذيب لا قتل . واختتم زهدى شرحه قائلا لى : هل فهمت يا أستاذ ؟ .. لعلك تكون قد استفدت حتى تكفوا عن كتابة كلام اهبل عن المعاملة الانسانية للمذنبين ولقد تمت الاجراءات التى أعدها زهدى بسرعة ، ودفنت الجثة بغير جنازة ، ولم يسمح لاهل الرجل بمشاهدتها ، الا فى كفنها ، وكانت زوجة الرجل مدرسة فى روضة أطفال « ... » ، وكان الرجل مدرسا أول للمواد الاجتماعية بمدرسة : « ... » الثانوية ، وكانت المعلومات الواردة بالملف الخاص به ، تقول عنه ، انه فى التاسعة والاربعين من عمره ، وأنه أب لثلاثة أولاد كلهم ذكور ، أكبرهم « تو » الذى كان وقتها فى العاشرة من عمره . وكان الرجل عضوا بارزا فى اللجنة المركزية للتنظيم الشيوعى « ... » الذى يدعو الى الكفر والالحاد والفوضية وينشر دعوة الاباحية التى تسمح بتبادل الازواج لزوجاتهم ، وتبيح للرجل أن يقفز فوق أى امرأة أينما شاء فى الطريق العام ، أو فى حديقة عامة ، واصحاب مثل هذه الدعوة مصيرهم جهنم ، وما كانوا يلاقونه من عذاب على يد شوكت وفرقته ، ماهو الا ذرة أو قطرة من محيط العذاب الذى سوف يحيق بهم فى الاخرة وقد بلغ من سفالة ذلك الرجل ، انه كان مستغلا ابنه « تو » وهو طفل فى نقل الرسائل والاوراق بينه وبين زملائه فى التنظيم ، وكان اغلب نشاطهم موجها الى منطقة شبرا الخيمة ، ووسط تجمعات العمال ، وكانت كل تحركاتهم واسمائهم الحركية ومنشوراتهم وخططهم تقع أولا بأول بين أيدى الشرطة . لان من السهل أن تجد بين هؤلاء المنحلين من يبيع اصحابه مقابل قرشين . وبينهم من يقبل أن يدخل معهم السجن ليتجسس عليهم داخله ، انهم لا يستحقون اى عطف او شفقة ، ورغم ذلك كان لابد فى مواجهة الموت من اتخاذ اجراءات تكسر من حدة ردود الفعل ، كصرف اعانة للزوجة ، وطبعا لابد من التكفل بمصاريف الجنازة ، ثم وضع الاسرة تحت المراقبة الشديدة ، لمعرفة اتصالاتها ، وقطع الطريق على محاولات من أفلت من السجن استخدام الزوجة فى اثارة ضجة حول موت الرجل .

وقد خيل الى زهدى أول الامر انه استطاع انقاذ الموقف وتفادى

أية ضجة . وكان سروره كبيرا عندما عرف أن تقارير المراقبة تقول أن الاولاد في مدرسة « تو » يتحدثون عن والده كمجرم ، وجاء في أحد التقارير ان « تو » نفسه ، كان يشارك الاولاد في اتهام والده ، وأنه كان خجلا من واقعة القبض عليه وذهابه الى السجن ، وكان أحد المدرسين قد سأل أحد الاولاد الذين يخالطون « تو » عن حالته بعد موت أبيه في السجن ، فقال الولد أن « تو » قال له أنه أستراح بموته ، وأن والده كان دائم الشجار مع أمه ، وكان « تو » واخوته ضحية لهذا الشجار . وكانت هذه هي كل المعلومات التي جمعها زهدي عن حياة الرجل بعد دفنه ، واكتفى بها ، وقد اطمأن الى انها بشير بأن كل شيء سوف يكون على مايرام . وكان أهتمام زهدى الاكبر منصرفا الى المعتقلين في السجن من ناحية ، وشوكت وفرقته من ناحية أخرى . فأما المعتقلون ، فقد قرر زهدى أن يغير سياسته معهم ، ولكن بالتدريج ، حتى لا يشعروا بأنه خائف منهم قرر أن يرشوهم تدريجيا ، بالسماح لهم بالسجائر . وبعض المجلات ، وغير ذلك من الاشياء التي يستطيع أن يسمح بها أو يمنعها عنهم وقتما شاء . وكان واثقا من نجاح خطته ، ولكن المتاعب بدأت يوم سمح بدخول الطعام الذى يرسله لهم اهلهم . فقد فوجىء بالاخبار تأتي اليه بأنهم رفضوا قبول هذا الطعام واكتفوا بالفول المسوس الذى يقدمه لهم السجن ولم يصدق . فليس من المعقول أن يحرموا أنفسهم مما جاء في الصواني والحلل ، وذهب زهدى يتفقد الحال بنفسه ، وكانت هذه أول مرة يواجههم فيها منذ ليلة الحفلة . وسألهم وقد رسم على شفتيه ابتسامة بشوش ودود . لماذا لا يأكلون ، واذا بهم ينظرون اليه في صمت مريب ، ولا أحد يجيب ، وفحص الطعام ، وامتدحه ، ومد يده ، وتذوقه امامهم ، مشجعا لهم على الاكل . كان مجرد رؤيته وهو يأكل كفيلة بأن تسيل اللعاب من أفواههم . وقد لاحظ بالفعل ان أكثر من واحد ينظر اليه ويبلع ريقه ، واذا بواحد منهم له وجه فأر ، عيناه جاحظتان من قصر النظر ، ولابد أنه كان يستخدم نظارة وتحطمت في الحفلة ، وقال له وجه الفأر :

ـ لن نأكل هذا الطعام ؟

قال زهدى :

ـ ولكن هذا ليس طعام السجن .. لقد جاء به أهلكم .. زوجتك .. أو أمك أو شقيقتك .. هي التي طبختِه .. فما ذنبها ..

قال وجه الفار :
ــ ولماذا تسمح لنا به ..
قال زهدى ضابطا لاعصابه :
ــ وهل تريد منى أن امنعه ..
فاذا بالولد يقول فى تحد :
ــ هذه رشوة لا نقبلها ..
قال زهدى متعجبا :
ــ اى رشوة .. تعنى ..
قال الولد محتدا :
ــ لو أكلنا هذا الطعام .. فنحن نأكل لحمه . ونشرب دمه .
وهنا انفجر آخر صارخا :
ــ نحن مستعدون للموت كما مات هو .
وصاح زهدى هادرا :
ــ اخرس يا كلب أنت وهوه ..
ومنذ تلك اللحظة ، ادرك زهدى أن تعقيدات كثيرة سوف تحدث وان علاج الموقف فى احد امرين لا ثالث لهما ، اما أفران هتلر ، وابادتهم جميعا ، او اخفاء هؤلاء الشهود فى مكان ناء قصى لا يعرفه مخلوق ، ولا يصل اليه الجن الاحمر .. وبما أن الافران ليست متوافرة للاسف فقد لقى اقتراحه بابعادهم الى معتقل فى الواحات ترحيبا كاملا .. والى هناك ساقوا كل شهود حوادث القتل والتعذيب فى هذه القضية ، وفى القضايا الاخرى ، بعضهم شيوعيون ، وبعضهم من الاخوان المسلمين ، وكانوا أكثر خطورة من الشيوعيين ، لانهم مدربون على السلاح ، واجسادهم قوية ، الواحد منهم كالحصان على عكس الشيوعيين ، المسلولين ، ولكن حدث قبل نقل المعتقلين من السجن الى الواحات ، أن تقدمت الى النيابة عشرات البلاغات تتهم شوكت وزهدى بقتل الرجل ، صاحب هذه البلاغات منشورات تصل الى كل المسئولين فى خطابات عن طريق البريد ، وذات يوم وقبل نقل المعتقلين بأيام ، أبلغوا زهدى أن النيابة قادمة للتفتيش على السجن واجراء تحقيق فى وفاة الرجل . واستعد زهدى للمناسبة فأخفى المعتقلين فى زنزانات بعيدة يكسل المحققون عن الوصول اليها ، واشرف على سير التفتيش وحركته ، بحيث يلتقى المحققون ببعض المسجونين الذين يشهدون بأن شيئا لم يحدث فى السجن فى ليلة راس السنة الجديدة ، واستمع المحققون الى الشهود ، ودونوا الاقوال

واقفلوا المحاضر وهموا بالانصراف ، وبينما هم فى الحوش ، اذا بنفس الولد اللعين ذى وجه الفار يتسلق نافذة الزنزانة ويصرخ بأعلى صوته :

ـ يا نيابة .. تعالوا أسمعوا أقوالى يانيـــابة ... أنا أطالبكم بالتحقيق فى الجريمة التى ارتكبوها .. وشهدتها بعينى .. قتلوا « ... » امامى وأمام رفاقى .

كيف عرف بأن النيابة قادمة ؟ وكيف عرف بأن هنــاك تحقيقا يجرى فى ذلك الوقت بالذات ؟ وأضح أن الامر يستفحل ، وهنــاك من يتجسس على ادارة السجن وينقل اخبارهم الى المعتقلين . وهذا خطير ، فعندما تتشكك فى السجانين أو الضباط تتوقع أن يفلت الزمام فى أية لحظة ، ووقف رجال القانون ينصتون الى الصـــيحات ، وتجاهلت أنى أسمع أى شىء . ولم تفلح الابتسامات ولا الثرثرة بأى كلام . ان رجال القانون تنقصهم المرونة فى مثل هذه المواقف .

وسأل رئيس المحققين :

ـ من أين يصدر هذا النداء ..

قال زهدى :

ـ أى نداء يا افندم ؟

فاحمر وجه المحقق ، وقال فى غضب مكتوم :

ـ اذهب الى هناك ..

وتحرك زهدى ، وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، مرددا أن بعض المساجين تظهر لهم رؤى وخيالات تجعلهم أشبه بمرضى مســتشفى المجاذيب .. فما كان من المحقق الا أن وقف ، وطلب منه ، أن يكلف أحدا بالذهاب معه . وكان مغزى هذا الطلب واضحا ، أن يكون زهدى بعيدا عن مكان التحقيق ، حتى لا يؤثر بحضوره فى أقوال الصارخ الشاكى .

واتجهوا الى الزنزانة وسمعوا أقوال المعتقل ، وسجلوا فى محضر التحقيق كل شىء ، وكان خطأ فنيا آخر تورط فيه زهدى ، لو كان آتخذ احتياطاته كما يجب ، لما وقع هذا الحادث الذى يعنى مزيدا من الاحراج . أليست الافران الهتلرية أفضل ، انها الضمان الوحيد أمام حالة عدم الانضباط . التى تؤدى بالسجانين أو بعض الضباط الى افشاء الاسرار ، ومع ذلك فاجراء التحقيق شىء والوصول به الى نتيجة شىء آخر ، والذى تعرض للمحاكمة التأديبية هو شــوكت ، وقد تقرر فصله من الخدمة . وكان خروجه خسارة كبيرة لا تعوض ،

فهو رغم كل شيء كفاءة نادرة فى التنظيم والتدريب ، وقد وقع عليه قرار الفصل كالصاعقة ، ولكنه استطاع أن يتماسك ، وتلقفه شيخ صاحب ملايين ، يعيش بملايينه حياة أبى نواس ، واستطاع شوكت معه ، أن يعمل فى الاستيراد والتصدير وعاش فى جنيف ، كملك يركب أحدث عربات المرسيدس ، والبويك . وقد قابله زهدى فى مطار روما اثناء رحلة قام بها الى الخارج ، فقال له انه يصرف فى اليوم الواحد أكثر من مائة جنيه ، ومع ذلك فهو يشعر بمرارة ويفتقد حياته مع فرقته وشهرته وهيلمانه فى السجون . وهذه الرحلة بالذات لها قصة جاء أوانها ، كان زهدى عضوا فى وفد ذهب الى « . . . » لحضور مؤتمر دولى عن السجون ، وهناك ، استدرجوه الى ندوه ، ذهب اليها بحسن نية ، ودخل قاعة مزدحمة بحوالى الف شخص ، واجلسوه مع آخرين فى المنصة حول مائدة عليها الميكروفونات ، والتف حولهم المصورون يلتقطون لهم صورا فوتوغرافية وسينمائية وتليفزيونية ، وكان المفروض أن يتحدث كل واحد من الجالسين على المنصة ، وهم من جنسيات مختلفة ، عن تطوير نظام السجون فى بلده . وكان زهدى قد أعد بحثا قصيرا مناسبا لا يتعدى القاؤه باللغة الانجليزية عشر دقائق ثم يترجم الى لغة البلد فى عشر دقائق اخرى . وافتتح رئيس الندوة الجلسة والقى بضع كلمات لم يفهمها زهدى ، ولكن اسما عربيا سمعه ، نطقه المتحدث ، فارتطم بأذن زهدى ، كان اسم الرجل الذى مات فى السجن فى تلك الليلة المشهودة . وقبل أن يفيق زهدى من المفاجأة ، اذ بالجميع : من يجلسون على المنصة ، والالف الذين يجلسون فى القاعة كلهم يقف صامتا ، ما الذى يجرى ما الذى حدث .. انهم يقفون حدادا ، هكذا يقول المترجم . حدادا على روح شهيد الطبقة العاملة الذى استشهد فى السجون المصرية .. ووجد زهدى نفسه يقف مع هذا الجمع الغفير وقد ساد بينهم الصمت ، وكأنهم جميعا يتفرسونه بنظراتهم ويلفحونه بأنفاسهم الحارقة . سخنت رأسه ، وبذل جهدا خارقا ليبدو وكان شيئا لم يحدث ولا يدرى كيف قرأ بحثه ، ولا كيف انفضت الندوة .. وكان بعض زملائه جالسين فى القاعة ، فانضموا اليه ، وتخلصوا من المترجم المصاحب لهم ، وعادوا الى الفندق مسرعين يتداولون الامر . هل اخطأ زهدى بالوقوف ؟ هل كان يجدر به الانسحاب ؟ ما الهدف من هذا المقلب الخبيث ؟ قالوا كلاما كثيرا ، وزهدى يستمع اليهم مستسلما وقد ارهقه الموقف فلم

يعد قادرا على الكلام أو الانفعال أو عمل اى شيء ، كان كل ما يحس به رغبة في القيء تجيء وتذهب ، ولا يستطيع ان ينهض متوجهسا الى دورة المياه ليفرغ مافى جوفه . حتى هبط عليهم وهم جالسون في بهو الفندق ، أحد رجال السفارة المصرية ، وطلب منهـم ان يذهبوا معه فورا للقاء السفير ، وبدات الحياة تدب فى جسد زهدى من جديد ، وجلس بجوار رجل السفارة الذى كان يقود السـيارة بنفسه ، وانطلق يشتم ويسب هذه الافعال الشريرة التى ارتـكبها هؤلاء الاوغاد الملاحدة . لابد من الاحتجاج لابد من الاعتذار لابد من مغادرة الوفد لهذا البلد فورا ، مثل هذا الحادث جزاؤه قطع العلاقات الدبلوماسية فى الحال . كان حماس زهدى يزداد اشتعالا والتهابا ، وزملاؤه يشجعونه ورجل السفارة يؤكد له أن ماحدث ستكون له أوخم العواقب حتى دخلوا على السفير الذى كان ينتظرهم فى قاعة فخمة واسعة بالسفارة .. وما كاد يرى وجوههم المحتقنة ويسمع كلماتهم الملتهبة . حتى بدا عليه الانزعاج . واذا به يقول لهم في لهجة حاسمة آخر ما كان يتوقعه زهدى .. انتم لا تعرفون سياسة بلدكم .. انى أحذركم من اثارة اى ضجة من أى نوع :

ـ لا احتجاج ولا انسحاب ..

والتفت السفير الى زهدى وقال له :

ـ ان تصرفك كان عظيما .. عندما وقفت حدادا على الرجل الذى مات .

انهم يعتبرونه شهيدا ، وليس لدينا مانع فقد كان ماركسـيا مثلهم .

ووقع فى يد زهدى ، بينما قال زميل له فى الوفد :

ـ ولكننا يا سيادة السفير لسنا ماركسيين ..

قال السفير فى هدوء :

ـ طبعا .. ولكن هذا لا يمنع من ان نكون اصدقاء ..

صاح الرجل :

ـ انهم يتهموننا بقتله .

قال السفير بلهجة باردة خالية من أى انفعال :

ـ فى كل مكان فى العالم تحدث مثل هذه الاخطاء .

فى تلك اللحظة ، عرف زهدى أن نهايته قد اقتربت ، ولزم الصمت ، ولم يعبأ بما يقدمه السفير من شرح وتحليل سياسى ، حتى عندما قال السفير .. ان كل هؤلاء المعتقلين فى الواحات سـوف

بفرج عنهم .. قابل زهدى الخبر بعدم اكتراث . عرف أنها شهور ويخرج محالا الى المعاش .. وتذكر لقاء الصدفة الذى كان بينه وبين شوكت فى مطار روما وهو فى طريقه الى ذلك البلد . هل يمر على شوكت فى جنيف أثناء عودته . ويسأله أن يشركه معه فى أعماله ، ولكنه لا يستطيع أن يترك وحيده حسن ، الافضل أن يركز جهوده فى أرضه بكفر الدوار . ويعيش فى الاسكندرية ، ويصرف جهوده فى الاعداد لمستقبل ابنه الوحيد . اقسم زهدى . انه رأى كل هذا المستقبل ، وهو جالس فى تلك القاعة الفخمة التى استقبلهم فيها السفير . رأى كل شىء كما حدث تماما . ولكنه لحظتها لم ير هجرة ابنه حسن ، ولم ير لقاءه بتو . وبعد أن خرجوا من السفارة ، تحول زهدى الى شخص آخر ، كان لا يثق فى شىء ، وثارت شكوكه حول ماقد يحدث له من ورطات ومقالب أخرى ، وكان يتلفت حوله فيخيل اليه أن الجميع يراقبونه ويعرفونه ، فخاف على نفسه ، وراودته الافكار عن احتمال اختطافه ، أو الاعتداء عليه ، ولكنه لم يفصح عن شعوره هذا لأحد . كان يغلق على نفسه باب حجرته فى الفندق بالمفتاح والترباس ، ويحكم اغلاق النوافذ فيشعر بالاختناق ويتصل بزملائه فى الحجرات المجاورة .. ويوقظ من نام .. وقد يذهب الى حجرة واحد منهم ويظل يثرثر معه حتى الصباح . يقول أى كلام فارغ ، أى شىء ، ويسب نفسه ، وصاحبه ويروى نكتا جنسية ، يقول أى شىء لا يؤخذ عليه كموقف سياسى ، ولم يتخلص من هذا الكابوس بعودته الى مصر ، فقد بدأت الرؤى التى تكشفت له ، وهو مع السفير ، تتحقق الواحدة تلو الاخرى ، تغيرت سياسة البلد ، وتغيرت المناصب ، والذين كانوا يحمونه بالامس تخلفوا عنه ، وبدأوا يتحدثون بلغة أخرى ، كلها من نوع السجع الاشتراكى الشيوعى التقدمى الى آخر هذا الكلام الذى يقول زهدى أنى أعرفه جيدا واتاجر به فى سوق الصحافة . وجاء اليوم الذى صدر فيه بالفعل قرار احالته على المعاش ، وقال لنفسه مواسيا أن آخر خدمة الغز علقة . وانه دائما يوجد الغز ويوجد من يخدمهم ، وتنتهى الخدمة فى كل الاحوال ، وفى كل زمان ومكان وتحت أى ظروف بالعلقة . وكان خروج زهدى الى المعاش آيذانا بخروج المعتقلين والافراج عنهم بعد شهرين ..

وهنا تشنج زهدى وهو يسألنى :

ـ بماذا تفسر خروج هؤلاء الذين اتهمناهم بالتخريب والتدمير والارهاب والهدم ، ماذا تفسر اعطاءهم المناصب والمراكز .. ماذا تفسر أنهم يهللون لنفس السلطة التى اعتقلتهم ..

قلت له : هذه هى السياسة ..

فصاح :

ـ ملعون ابو السياسة ..

ثم سألنى بحرقة :

ـ ولماذا لم يضربوا عن المناصب .. كما اضربوا عن الطعام الذي أرسله لهم اهلهم فى السجن .. لماذا قالوا لا نأكل هذا الطعام لانه لحم القتيل ودمه .. ولم يقولوا لا نجلس على مقعد هذا المنصب أو ذاك .. لانه من عظام صاحبنا القتيل .

وجدتنى أقول له وأنا لا أعى ما أقول :

ـ ربما كانت الاجابة على سؤالك عند تو ..

فسألنى فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟

قلت له :

ـ لا أعرف ، ولكنك سوف تساعدنى ، لو قلت لى كيف عرفت تو .. فهم قبلوا المناصب وهذا فى رأيك غريب .. وانت تقول انك تبنيت تو وهذا فى رأيى أغرب .

الفصل السابع

« تو » او السياسة

هنا وصلنا الى مفترق طرق ، زهدى يريد أن يشدنى الى الحديث عما يدور فى البلد من تقلبات سياسية ، يريد أن يفهم ، أو كما قال لى فيما بعد ، « أريد أن أتأقلم » أما انا فكنت مصمما على أن اسمع منه بقية قصة « تو » ، لقد حدث بينى وبين زهدى شد وجذب حول هذين المحورين ، السياسة ، وحكاية تو ، وأعترف أنى لم أدرك معنى هذا الشد والجذب ساعة حدوثه . ولكن المعنى واضح لى تماما وانا أسجل خواطرى ومعلوماتى فى هذه اللحظة على الورق . ويخيل الى أنى سأفهم اكثر دوافع زهدى لو تذكرت بدقة كيف جرى الحوار بينى وبينه ، وأهم من ذلك ، لعلى أكتشف بعض مافى نفسى من غموض أقرب الى التشويه ، احدثته تلك المخاوف التى أثارتها اعترافات زهدى عن مقتل والد « تو » فبعد أن أسجل كل شىء ، يجب أن اجيب على سؤال أوجهه الى نفسى .. هل أنت جبان ، هل أنت تعيش فى مجتمع بلدك وتتعامل مع الاخرين وتكتب لهم وانت محكوم بالمخاوف وألوان الذعر . هل انا اتشبث بحكاية « تو » لاهرب من حكايات السلطة والسياسة بأهوالها وجبروتها ، انى أكتب هذه الاوراق لنفسى ولن يطلع عليها أحد ، فعلى الاقل يجب أن أكون صريحا الى أقصى حد فى هذه اللحظات بالذات . واذا لم أفعل ، فما فائدة كل هذه المعاناة ، وأرجع الان الى زهدى ، واتذكره وهو يقاطعنى محتجا ، يسألنى لماذا تهتم بـ « تو » الى هذا الحد . لماذا تتشكك فى تصرف انسانى أقدمت عليه عندما قدمت له المساعدة والرعاية ؟ أغريب فى نظرك أن البى دعوة الشهامة والمروءة ، هل أصبح كل شىء فى الدنيا يقاس بمقاييس الانانية والنذالة ؟ أنا لست ياسيدى وحشا ضاريا ، انا فلاح عريق من عائلة عريقة ، واذا كانت دواعى العمل قد اقتضت أن أقوم بعملية يقتل فيها رجل ، فليس معنى ذلك انى غليظ

القلب ، اريد أن افتك بكل الناس ، ثم ماهذا الذى قمت به من اجل تو ، مجرد وظيفة صغيرة حصل عليها فى النادى ، أهم منها ، هو شعوره بأن له ظهرا يحميه ، بل يتبناه . ولقد فعلت كل هـذا لوجه الله ، صدقنى أنه معروف صنعته وقذفت به فى البحر .

ولابد أن أسجل ، ان زهدى توقف هنا عن الكلام وكأنه يريد ان يراجع نفسه فيما قاله . ثم عاد يقول لدهشتى :

ـ فى الحقيقة انا قذفت بهذا المعروف فى صفيحة زبالة .

ولم أفهم ساعتها سر هذا التعديل الذى بدا له انه ضرورى ، فما الفرق بين أن يقول انه قذف بالمعروف فى البحر ، أو فى صفيحة زبالة ، ولماذا يتحول البحر فى خياله الى قمامة ، ولم يترك لى زهدى فرصة لتحليل أسلوبه ، فقد انطلق يدافع عن نفسه . وكأنى أتهمه بمساعدة « . . . » فجعل يردد انه لن يستفيد شيئا من وراء « تو » لا شيء على الاطلاق .

وكان زهدى يتحدث بلهجة عاطفية ، صوته يتهدج أحيانا ، ويداه ترتعشان من الانفعال ، ولم تقنعنى هذه الحالة العاطفية ، كنت أقرب الى الظن انه نصاب كبير يؤدى دورا غير متقن فى عملية احتيال كبيرة ، كان صوته قد ارتفع . . وتحول من الحديث الى الخطابة ، وتحولت انا المستمع الوحيد الى مايشبه الجمع الغفير . وكان ينظر امامه وفى عينيه اعجاب بنفسه ، حتى خيل الى انه يتأمل ملامح وجهه فى مرآة يتوهم وجودها امامه . قلت لنفسى ، مـاذا وراءك يازهدى ما الذى تحاول اخفاءه عنى ، او عن نفسك ، وبدأ صبرى ينفد ، فلم أعد أطيق استمرار الخطبة ، فلما ابتسم لى ، يدعونى الى أن أقول له كلمات اعجاب او اعتراف بتصرفه الإخلاقى العظيم كان اشبه بالممثل الذى ينحنى للجماهير وهو واثق من انها سـوف تصفق له بحرارة واعجاب ، وعندئذ شعرت بنفور حاد منه ، رغم أن كل كلمة قالها ، كانت نقيض بالمعانى السامية ، وتؤكد القيم النبيلة فى حياة الانسان . ووجدتنى اقول له فى عصبية لا تخلو من سخرية انى كرجل حرفته الادب ، ترهقنى الصيغ الانشائية ، والـكلمات الكبيرة ، مثل الشهامة والمروءة والنبل والانسانية الى آخر هـــذه الكلمات الضخمة ، وكان يستمع الى فى غير فهم ، فأضفت قائلا انى كنت اسمع منذ قليل اعترافه التفصيلى باشرافه على عملية قتل والد « تو » فلو كان يعرف حقيقة المعانى الضخمة التى يتحدث عنها ،

لتردد طويلا ، قبل أن يحدثنى على هذا النحو عن اليتيم الذى كان هو نفسه سببا فى يتمه .

وتوقعت أن يثور زهدى ، فقد بدت عليه علامات التنبه لما اقول ، وأوشكت ان اسمع سيل الشتائم البذيئة التى سيقذفنى بها ، ولكنه استمر يستمع الى فى بلادة وقد فغر فاه ، وللحظة خاطفة خيل الى انه قلق ، وانه يشعر بضعف ، وسرت فى جسدى رعدة ، كأنى أرى ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة ، ان هذا القلق الذى مر كالشهاب فى عينيه ثم اختفى ، كان يعلن عن وجود انسان فى هذا الكيان او الجسد المدعى والمتداعى الجالس امامى .

أيكون هناك احتمال للقاء حقيقى بينى وبين هذا الرجل ، لقاء انسان بضعفه وقلقه ومخاوفه ، مع أنسان آخر بضعفه وقلقه ومخاوفه . هل هناك شيء آخر حقيقى خلف هذه الواجهة التى اسمها اللواء زهدى ، والتى أناديها احيانا عندما اداعبه هاتفا .. ياجنرال .. كيف امسك بهذا الشهاب الذى لمحته فى عينيه ؟ ام هو الوهم الذى جعلنى أرى ذلك الشهاب . وزادت دهشتى وانا أرى زهدى يميل برأسه نحوى ، وقد تقدم بجسده الى حافة المقعد الذى يجلس عليه ، مطرقا باذنيه ، يريد أن يسمع منى المزيد .

وما الذى فعلته فى تلك اللحظة ، لقد ارتبكت ، وخفت ، وتحولت مشاعرى فجأة من نقيض الى نقيض ، همست مخاوفى ، هذا الرجل يريد أن يستدرجك لامر ما ، ألزم الحذر ولا تندفع معه فى الكلام ، وانت على اى حال جئت لتسمع لا لتتكلم ، واذا بى أقول لزهدى معتذرا له عما بدر منى :

ـ آسف يازهدى بك .

فنظر الى نظرة طويلة واهنة ، وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هادئة وادعة أنه كان يريد أن يسمع رأيى ، كان يتحدث ببطء ، بلهجة فيها تفكير ومعاناة . لهجة تختلف تماما عن اللهجة المسرحية الخطابية التى كان يتعامل بها معى منذ قليل .

اصبح صوته خافتا ممطوطا ، وهو يحدثنى عن اهميـة هذه الجلسة بالنسبة له . فهى جلسة أصدقاء من نوع نادر ، قد اتاح له وجودى فرصة الحديث فى موضوعات لا يستطيع أن يتحدث فيها مع كل الناس ، وهو واثق من رأيى فى نسبة الاصدقاء فى النادى ، كلها كلام فارغ ، وضياع وقت . انها فى الحقيقة ضياع عمر .

وكم كان يتمنى مثل هذه الجلسة منذ زمن طويل ، يتحدث ويتفاهم حول الامور الهامة فى الحياة ، فقلت له انى اوافقه تماما ، بل انى سعيد بسماع ما يقوله ، واننا وصلنا الان الى مايشبه مفترق طرق . ويهمنى جدا أن أبادله الرأى فى شيء يهمنى بالدرجة الاولى وهو حقيقة مشاعره نحو « تو » ، واسرعت أقول له ، انى لا اتهمه ، ولا الومه ، ولا احاكمه ، فليس هذا مقصدى ، كل ما أريده هو أن أعرف .

فتجاهل زهدى كل كلمة قلتها ، وكأنه لم يسمعنى ، بل أنا واثق انه لم يفهمنى ، لانه مضى يتحدث عن الشلة التى تجتمع فى النادى ، شكرى السفير ، ورءوف مدير البنك ، وسعفان رئيس مجلس الادارة وغيرهم وغيرهم ، كلهم يا استاذى الفاضل طاقات معطلة ، احالوها الى الاستيداع أو المعاش ، وكان من الممكن أن تفيد البلد بهذه الخبرات العظيمة ، واذا كانت السلطة قد اخطأت وفرطت فينا ، فلماذا نخطىء نحن فى حق انفسنا ونضيع وقتنا فى الكلام الفاضى والهلس ..

كنت أستمع اليه وهو يبتعد عنى ويوشك أن يتوه فى ضباب بعيد ، وعجبت لصوته وهو يعود الى الارتفاع ، واللهجة الخطابية تستولى عليه من جديد ، وبلغت ذروتها ؟ وهو يهتف أمام الجماهير التى هى انا . وينظر فى المرآة الوهمية التى يتأملها معجبا بنفسه ، قائلا : أعترف انى مسئول عن جلساتنا الهلس .. انا الذى جعلتكم تستسلمون لما أنتم فيه من ضياع .. ولكن هل هذه هى حقيقة زهدى .. ابدا .. وهل انا مرتاح لسلوكنا هذا ، مستحيل .. ونحن الان نستطيع أن نفعل شيئا .. فكر معى فى كل هذه الرءوس الكبيرة التى تتجمع فى النادى ، لتتبادل الشتائم وتلعب البريدج ، ماذا يحدث لو تجمعنا ، ووضعنا ايدينا فى ايدى بعضنا بعضنا ، وتقاربت رءوسنا ، وكان لنا رأى فيما يحدث فى البلد ، اقسم لك أن حالنا سوف يتغير وسيكون لنا كيان ونفوذ ، ويعملون لنا ألف حساب ، لا تستهين بهذه الكفاءات المتقاعدة .. أليس هذا رأيك ؟

كان قد غاب عنى تماما ، وكنت افكر بسرعة محمومة فى حقيقة نواياه ، وكنت لم اتبين بعد ، ما ادركه الان ، عن هذا الشد والجذب الذى كان بيننا حول السياسة من ناحية و « تو » من ناحية اخرى .

وقلت له مرتبكا :

ـ هذا يعنى أن نتحول الى حزب ، وينتهى بنا الامر الى حفلة من حفلاتك اياها فى السجن .. فهل انت مستعد لهذا يا زهدى بك ..

فهز راسه مستنكرا وقال :

ـ ماهذا الذى تقوله .. المسالة لا تحتاج لحزب ولا يحزنون ، انت لا تفهمنى .. كل ماهو مطلوب يا أخى هو أن نجمع مالنا من علاقات وصلات هنا وهناك .. وان نتحرك معا .. نحن فى حاجة الى علاقات عامة .. هل تعرف أن أى مشروع كبير فى أمريكا يخصصون نصف ميزانيته للعلاقات العامة .. مثلا .. أنت تكتب فى الصحف .. وتستطيع طبعا أن تكتب مقالات عن الطاقات المعطلة امثالنا .. انا شخصيا مستعد أن أكتب لك سلسلة مقالات فيها دراسة عظيمة عن مفهوم الامن فى مجتمعنا ، وهكذا تظهر فى الصورة .. ويكون لنا دور .. ولا يضيع عمرنا فى النادى والبريدج .

كان اقتراحه مفاجأة لى ، فلم اتوقع ان يتحول هذا الرجل البذىء السليط اللسان ، الذى يتزعم جلسات النكات الجنسية ، ولا يستريح الا اذا خلت جلسة النادى من النساء ، ليتأوه ، ويصدر ابشع الاصوات ، يتحول هذا الرجل ، الى داعية لنشاط . ماذا اسميه ؟ تجميع قوة نفوذ . أو خلق نواة لمركز قوة كما نقول بلغة السياسة .

قلت له :

ـ الفكرة عظيمة ، ولكنى لن أتوسط لنشر مقال واحد لك ، قبل ان تحدثنى عما أريد أن أعرفه .

ومرة اخرى ، خيل الى انى لمحت شهاب القلق يمرق فى عينيه ، وقال بصوت يخلو من حماسه المعتاد عندما يسب ويشتم .

ـ يخرب بيتك .. هيه حكاية الدبانة .

قلت فى اصرار بليد :

ـ عرفت منك انك قتلت الاب .. وسمعتك تقول انك كنت شهما ذا مروءة فتبنيت الان .. وهذا شىء مثير بالنسبة لى .. اريد أن أعرف تفاصيله .

فهتف وقد عاود لهجته المسرحية :

ـ لا .. ياسيدى .. هذه باشكاه ، وهذه باشكاه .

ثم أردف يشرح لى ، وقد ادرك انى لم أفهم .

ـ موضوع الاب شيء .. وموضوع الابن شيء آخر .
قلت :
ـ هناك صفة بينهما .
هتف فى ثقة :
ـ قطعا لا .. هذا عمل أؤديه .. وانفذ فيه الاوامر مهما كانت نتائجه .. وذلك عمل أقوم به بمحض ارادتي .. لقد قلت لك هـذا الف مرة .. فاعتقنى يا أخى .. حتى تفرغ للكلام المهم .
قلت له :
ـ ان ما اتحدث فيه مهم جدا بالنسبة لى ..
وفتح فمه ، فاسرعت بالكلام رافعا صوتى ، أكاد اتخـذ نفس اللهجة الخطابية .
ـ اذا كنت تريد أن تتفاهم معى ، فيجب أن يكون تفاهمنا كاملا ان موضوع « تو » هذا لايعنينى فى شيء .. واقسم لك أنى لاأعرف حتى الان ما ألذى جعلنى أسألك عنه .. انه شيء خرج من الهواء من العدم .. وأول شيء جاد سمعته ، هو ماروىته لى أنت عن والده .. ولست أدرى لماذا لاتشغلنى هذه القصة آلان ـ بقدر ماتشلغنى صلتك أنت بالولد ـ بصراحة اريد أن أعرف ، هل أنت تساعد « تو » لتكفر عن شعور بالذنب .
صرخ زهدى :
ـ أى ذنب يا أستاذ .. هذا آخر ماكنت أتصور صدوره عـن رجل عاقل مثلك .
وانهال على هذه المرة بشتائمه البذيئة ، ولكن رعشة فى صوته كانت تفضح ذلك القلق الذى يعانى منه . أنها ليست نفس اللهجة غير المبالية الوقحة الواثقة التى يطلق بها شتائمه فى النادى . هـذه شتائم دفاع ، لا شتائم هجوم .
وواجهته بابتسامة عريضة وقلت له :
ـ اشتم كما تشاء ..
هتف متظاهرا بعدم الفهم :
ـ ما الذى تريده بالضبط .. ماهو هدفك ؟
قلت بسرعة :
ـ ولماذا حكيت لى ماحكيت ؟
ـ لانى كنت أريد أن ادخل معك فى الموضوع .. سألتنى عن تو .. فحكيت لك عن أبيه والشيوعية .. والمصائب التى حدثت لى

وللبلد . وبدانا نتفاهم .
قلت بغير تفكير :
ـ الموضوع يستحق أن اكتب عنه رواية .
قال :
ـ اعرف هذا ..
قلت :
ـ ولذلك اريد منك تفاصيل اكثر .. هل تذكر يوم جئت لزيارتك في هذا البيت لاول مرة .. يوم سفر حسن الى كندا .. الم احدثك عن الصلة بين رجل الشرطة وكاتب الرواية .. وكيف أن كليهما يهتم بالتفاصيل الدقيقة ماخفى منها وماظهر .. التفاصيل ياجنرال ارجوك .. التفاصيل لا هذا الكلام عن الشهامة والمروءة .
تململ زهدى في مقعده وقال :
ـ رغم انك خيبت ظنى فيك .. الا انى سأحكى لك كل ماتريد ، سأكون صادقا معك .
واطرق برهة .. كأنه يتذكر شيئا ، ورفع رأسه وقد رسم على شفتيه ابتسامة خفيفة مريبة . ومضى يقول أنه سمعنى الان ، وانا اذكر ابنه حسن ، وهذا التذكر يشعره بالوحشة والحنين الى ابنه ، ويعترف لى بهذه المناسبة أن المعروف الذى صنعه لتو ، كان له مقابل لم يطلبه من أحد ، ولكنه طلب من الله سبحانه وتعالى ، منه هو وحده ولا أحد غيره ، طلب من الله أن يضع في طريق ابنه الذى في الغربة ، رجالا يمدون له يد العون والمساعدة مثلما فعل هو مع تو . وهذا طلب لا يستطيع أحد أن ينكره عليه ، من حقه أن يفكر في ابنه ومن حقه أن يعامل الله بما يرضيه ، وهو يتوقع أن يرد له الله الثواب مضاعفا لابنه .. صدقنى أنا مشتاق اليه . واحيانا تنتابنى الهواجس السوداء ، وافكر في انى سأموت قبل أن اراه ، واتعذب ، ولا أطيق نفسى ، واحيانا تراودنى فكرة تلح على أن اذهب اليه في كندا واتوسل اليه ان يعود ، فمن يدرى ، قد يكون في حالة سيئة . او يتضور جوعا ولكنه عنيد لا يريد أن يعترف بالهزيمة ويعود الى أبيه .. ثم هذه الارض ، لمن يتركها ، ومن يرثها ، أحيانا تخطر له أفكار جنونية ، أن يتزوج وينجب ولدا آخر ويتخلى عن هذا الولد الأحمق الذى هجره .
لقد صارح السفير شكرى منصور بهذا الخاطر عندما زاره في بيته ، وقد نشأت بينهما علاقة خاصة لما يعانيه كلاهما من ولديهما ،

حسن هاجر ، ويسرى لا يتورع عن ضرب أبيه .. وزهدى يقول لشكري ، ليت حسن بقى وضربني . وشكرى يقول لزهدى ليت يسرى هاجر أو مات ولم يرفع يده على . ولما سمع شكرى بالافكار التى تراود صديقه زهدى عن الزواج ، حذره قائلا : اياك أن تفعلها يا مجنون ، نحن فى سن لا نشعر فيه بالرغبة نحو المرأة ، لاننا أصحاء ، ان الذى يحرك رغباتنا هو التهاب البروستاتا ، ولو تزوجت يازهدى فسيقضى عليك الالتهاب وتموت فى ستة شهور .

وضحك زهدى قائلا :

ـ هل هذا يعجبك فى الرواية ؟

قلت له :

ـ كل ماتقوله يعجبنى .. ولكن .. لا تغضب اذا عدت وسالتك .. الم تشعر حقا بأى رغبة في مساعدة تو للخلاص من الشعور بالذنب ..

فهز راسه نافيا .. وردد :

ـ أبدا .. أبدا ..

سالته فيما يشبه التوسل :

ـ ساعدنى وفكر ..

ولمحت لفرحتى شهاب القلق فى عينيه ، وسمعت صوته هادئا خافتا .

يشرح لى أن الامر ليس كما أريد أن اصوره . ولكنه عندما وجد « تو » أمامه لم يتمالك أن يقول لنفسه . هاهى الاقدار قد أرسلت هذا الولد بالذات لتمتحننى فى أبنى حسن .

وسكت ناظرا الي في استسلام يشجعنى على أن اسأله بد .

فسألته :

ـ كيف التقيت به ؟

فتح فمه ليجيب ثم أغلقه ، وقد ظهر عليه ارتباك واضح ، هاهو لاول مرة يطفح القلق والضعف .. يطفحان الى السطح .. وكان مشغولا بمحاولة ترتيب الحكاية وتفاصيلها على النحو الذى يريد أن يصوره لى ، وبعد أن استقر الى صورة معينة ، قدمها لى على النحو التالى .

قابل منيرة بيجو ذات ليلة ، وكانت واقفة عند باب شقتها ، ويبدو انها كانت تترقب مجيئه من النافذة . فلما راته قادما أسرعت الى

باب شقتها وفتحته ، وقابلته بلهفة غير عادية .. وسألته أن يدخل عندها لتحدثه فى أمر يهمها . أنه أمر كثيرا مايحدث ، وهى تعتمد على مشورته فيما بينها وبين شرطة الاداب من صلات ، لانها تقدم لهم الكثير من المعلومات مقابل التساهل معها فى حدود ، وهذا أمر معترف به ، ولا مفر منه لتنفذ أعين الشرطة الى عالم الدعارة والمومسات .

وفوجىء زهدى بوجود شاب من نوع « الهيبى » فى صالة بيت منيرة . مخلوق منفر قذر ، ان زهدى يشعر شخصيا بالقرف من هؤلاء الأولاد الهيبي . بصراحة لايطيقهم ، ولو تركوه يتصرف على حريته لابادهم سحقا ، لانهم فى نظره أبشع وأوسخ من الصراصير والبق . اهانة للرجولة ، وكان طبيعيا أن يتأفف زهدى من وجود الولد ، ولم يخطر بباله أن منيرة سوف تتحدث معه فى الموضوع الهام الذى يشغلها أمام هذه الحشرة ، واسوأ من هذا ، أن الولد الحشرة ظل جالسا مكانه منكوش الشعر بقميصه المزركش يهرش شعره ، دون أن يكلف نفسه الوقوف احتراما للرجل الذى دخل . وهو لابد يعلم من منيرة ، من هو . ومايكون مقامه ..

وفوجىء زهدى بمنيرة بيجو تشير الى هذا الهيبى ، وتسأله أن يساعده فى البحث عن عمل ، ارتفع الدم فى رأس زهدى ، وكاد يضرب منيرة ، لولا أن تماسك ، وصاح هادرا فيها ، انها جنت ، اذ تجرؤ على مثل هذا الطلب ، اذ كيف يخطر ببالها أن يساعد هذا الحيوان الحقير الشاذ الذى لم يكلف نفسه مجرد عناء الوقوف احتراما له .

وهنا انتفضت الحشرة واقفة ، وتلعثم بكلام غير مفهوم زاد زهدى حنقا ونفورا منه . وقالت منيرة أنه يقول أنه وقف عند دخوله ثم جلس فصرخ زهدى ، ومن آذن له بالجلوس طالما أن سيده واقف . ولعن سنسفيل جدوده ، وقال لمنيرة ، انه لايعرف أصحاب المواخير التى تستعمل امثال هؤلاء الشواذ المنحرفين ، وأنها اذا كانت تستخدم امثاله لاستعمال زبائنها ، فسوف يقطع صلته بها ، وسوف تتغير معاملة الشرطة لها . وسوف تعود الى السجن مرة أخرى أو على الاقل سوف يطردها من هذا البيت .

ويعترف زهدى باعجابه بمنيرة فى هذا الموقف .

المرأة تحملت كلامى فى هدوء كامل . امرأة واعية قادرة ، لا تهتز بسهولة امام اى تهديد رغم انها واثقة من قدرة زهدي على تنفيذه ،

كل مافعلته ، هو أن انحنت وخلعت شبشبها ، وتقدمت في هدوء بجسمها الضخم ، وانهالت عليه ضربا ، والولد ساكت لا يتحرك ، يكتفي باطراقة من رأسه الضخم ، متلقيا ضربات الشبشب في اذعان واستسلام ، ولاحظ زهدي أن ضربات منيرة ، ليست بالعنف الذي توهم به شتائمها ، كانت تضربه بحنية ، والولد الحقير يكاد يخفي ابتسامة ، واخيرا التفتت منيرة الى زهدي وقالت له انها ضربته وأدبته بما فيه الكفاية . ولكن ماحيلتها وهذا المغفل يحتاج الى مساعدة ، ثم اندفعت تنحني على يد زهدي تقبلها وتتوسل اليه أن يغفر للولد غباءه وحماقته . وان استجابة زهدي لطلبها هو جميل العمر الذي لن تنساه وسوف يجعل منها جاريته ، يتصرف فيها كما يشاء .

كان زهدي قد قرر الا يفعل شيئا لهذا الحقير المنفر . ولكنه واجه محاصرة منيرة له . واهتمامها البالغ بهذا الحقير .

وقال زهدي متخلصا من الموقف ، أنه سيفكر في الامر . قالها في برود وقد أسرع الى الباب يريد الانصراف ، فتشبثت منيرة بذراعه ملهوفة مستغيثة ، وقالت له ، أنت تضحك على ، ولو كنت ستفعل شيئا لسألت عن اسمه وتعليمه وظروفه . ولم يجد زهدي مفرا من أن يذعن لها تخلصا من الموقف . وصاحت منيرة في الولد أن يعطيها الورقة ، فأخرجلها ورقة اختطفتها منيرة من يده وأعطتها لزهدي ، الذي تظاهر بقراءتها ، ودسها في جيبه وسارع بالانصراف وصعد الى مسكنه ، وهو يشعر بالضيق والحنق ، يقلب في رأسه شتى الخطط التي يرد بها لمنيرة الصاع صاعين .

حتى جاءت ساعة نومه بعد ان شاهد في التليفزيون برنامج السينما والحرب ، وكان يفكر في جملة اعجبته قالها ضابط ألماني في معتقل للاسرى ، كان يقول لاحد زملائه بعد أن قتلوا مجموعة من الاسرى حاولوا الهرب « هناك بعض الاشخاص تشعر بالاسف لموتهم ، وهؤلاء الذين قتلناهم أفضل من أولئك الفئران المذعورة التي تنتفض من الخوف ولا تجرؤ على مواجهتنا .. عاملوهم بشدة .. فالذين كانوا يستحقون شرف الحياة قد اختاروا الموت » كان زهدي يتقلب في فراشه بعد أن أطفأ النور استعدادا للنوم ، وليس في رأسه سوى هذه الكلمات البارعة ، وصورة الضابط الالماني الوسيم بوجهه النبيل الصارم والمونوكل على عينه عندما اختفت صورة الضابط وقفزت مكانها صورة ذلك الولد الرقيع الذي رآه عند منيرة بيجو . وتذكر الورقة التي تحوي معلومات عنه ، والتي يحتفظ بهـا

فى جيب سترته ، ولم يستطع النوم ، كان يريد أن ينهض ويقرأ مافى الورقة من بيانات .

وأضاء الاباجورة ونهض ، واخرج الورقة ، وما كاد يقرأ الاسم ، حتى تذكر والدا تو .. الاسم هو الاسم ، لم يتطلب الامر لحظة تردد واحدة ، منظر الولد براسه الكبير ، ووقفته الصامتة ومنيرة تنهال عليه بضربات الشبشب ، لم تسمح له بأن يتردد ، آلولد ابن ذلك الرجل .. هذا يقين قاطع حاسم لا يسمح بذرة شك . صدف غريبة جمعتها الاقدار ، آلفيلم والضابط الالمانى والمعتقل والاسرى وذكرياته عن السجون وشوكت وذلك الرجل الذى مات . واضراب المعتقلين عن الطعام حتى لا ياكلوا لحمه ولا يشربوا دمه ، وترحيلهم الى الواحات ثم ذلك آلمشهد العجيب آلذى وقف فيه حدادا على الرجل . شهيد الطبقة العمالية . والسفير .. والكلام عن الصداقة وتغير السياسة ، وخروج المعتقلين .. ووثوبهم الى المناصب وانتشار الافكار الشيوعية علنا فى البلد واحالته على المعاش .. وهجرة أبنه ، ثم تدور الدوائر واذا به يواجه ابن نفس الرجل . فى صورة ذلك المسخ المنفر المشوه الشاذ .

وفحص زهدى المعلومات المدونة فى الورقة ، السن ٢٤ سنة ، حصل على آلثانوية علمى ، طالب فى كلية الزراعة بالسنة النهائية ، ما الذى يعطله عن الدراسة وقد شارفت على نهايتها . انه يطلب الوساطة فى امتحان قبول وظيفة فى فندق فلسطين .. يقول انه يجيد ثلاث لغات .. كلام غير معقول : وفلجأة خطر لزهدى السؤال الذى كان يجب أن يفكر فيه أول الامر ، هل يعرف هذا الولد صلة زهدى بأبيه . هل تعرف منيرة بيجو . هذه أسئلة بديهية . ويجب أن يعرف الاجابة عنها فورا ، فما آلذى يدريه أن هناك شيئا يدبر له فى صفيحة الزبالة التى تجمع بين منيرة بيجو و « تو » .

الفصل الثامن

طار النوم من عيني زهدى ، وفتح النافذة واطل على مدينة الملاهى القائمة تحت بيته ، كانت غارقة فى الظلام ، تبرز هياكل مراجيحها كاشباح خرافية ، دنيا العجائب تحت ، هناك ، هناك ، هاجعة ، ودنيا العجائب ، فوق ، هنا فى راسه تضج بصخب عنيف كان لا يقوى على التفكير ، لان الذكريات كانت تغلبه ، ولكن خواطر محددة كانت تهاجمه . لو كان « تو » يعرف صلته بمقتل والده ، فلماذا لجأ اليه ليساعده ، هل يفكر الولد فى الاقدام على عمل طائش ؟ وهنا ابتسم زهدى وقال لى انه استبعد هذا الاحتمال . كانت ابتسامته تخفى مرة اخرى شهاب القلق ، ووجدتنى أقول بصوت أقرب الى الهمس :

ـ ولماذا تستبعد مثل هذا الاحتمال .

اجاب بسرعة وانفعال :

ـ لقد تعلمت من مهنتى الا استبعد اى احتمال ، كل شىء يمكن ان يحدث .

يلوح بيده فى الهواء ، كأنه يطرد الخاطر الذى يقلقه ، وانطلق يحدثنى عن ذلك الشعور الذى استولى عليه ، والذى بدا لى أنه حالة نفسية معقدة ، ولكنها انسانية تماما ، فاذا كان زهدى قد رفض فكرة أن « تو » يتربص به ، وأنه يريد به شرا ، فذلك لان مشاعر اخطر وأفدح قد هاجمته وغلبته على أمره تماما ، فقد ايقن وهو ينظر الى أشباح مدينة الملاهى ، ويتجول بعينيه فى السماء الملبدة بغيوم فضية تخفى ضوء القمر ، ان عين الله ترقبه ، وان هذا الوهج الفضى المضىء فى سماء الليل ، يقول له ان الله قد ارسل له « تو » ليمتحنه فى حسن ، وان ارادة الخالق ، هى التى منعت عنه النوم ، وهى التى دفعته الى أن يخرج ورقة « تو » من جيب سترته ، وهى التى ابلغته أن هذا الولد ، هو ابن ذاك الرجل ، ثم هى التى دفعته الى ان يفتح النافذة ، ويطل منها على السماء . نعم هذه هى الحقيقة ، وهو

واثق منها الان . أكثر منه فى أية لحظة اخرى ، هاهو يصوغهـا ويواجهها ويقولها لى كاملة واضحة لا يشوبها لبس أو غموض . وهو يعترف لى أن هذا المعنى لم يتضح له تماما قبل هذه اللحظـة التى يحدثنى فيها .

واردف يقول :

ـ أساعد هذه القذارة .. واتحمل نفورى منها ، حتى يرضى الله عن ابنى .

انها علامات ـ كما يقول زهدى ـ تظهر للانسان فى حيـاته . وعليه أن يقرأها ، وأن يفهمها ، وان يستجيب لما تتطلبه منه ، والا حاقت به نقمة وغضب الله .

ولقد تاثرت فى تلك اللحظة بحديثه ، رغم انى لا افهم هذا المنطق العجيب الذى يتحدث به ، تأثرت لانه كان يخاطبنى معبرا عن كل مافى نفسـه من ابعاد فى صلته بالكون وخالق الكون . ومعبرا عن كل مافى نفسـه من ابعاد فى صلته كأب بابنه الذى تركه وهاجر . كان لايتحدث من خبراته كضابط شرطة ، ولا يتحدث عن أطماعه فى السـلطة والنفوذ ولا يتحدث عن شهواته وفجوره ، لقد تخطى كل هـذا ، ليكشف لى آخر ماعنده ، وكل ماعنده ، صلته بالكون والرب ، وصلته بالحياة واستمرارها فى ولده .

قال ببساطة أشبه بالصفاء النادر الذى لم أتوقعه ابدا فى مثل هذا الرجل :

ـ بعد هذا الذى حدثنى به قلبى .. واحساسى بأن الله يمتحننى فى ابني الوحيد ، لم اعد قادرا على مواجهة اى احتمال آخر .. كان لابد لى من أن أساعده .

قالها فى استسلام من لا حول له ولا قوة ، امام أمر صـادر من السماء . كان يبدو لى ساذجا الى أقصى حد ، ولكننى لم أشعر بقوة كلماته وخطورتها مثلما شعرت فى تلك اللحظة . هاهو الرجل الذى لم يتورع عن ارتكاب جرائم القتل والتعـذيب ، الذى يتبـاهى « بحرفنته » ، الفاجر الداعر ، البذىء ، السليط اللسان ، يكشف لى انه مازال يحتفظ فى أعماق كيانه الرهيب ، ببذرة سذاجة ، وان لديه من الامكانيات مايجعله يناجى السماء فى الليل ، ويتبـادل معها الحديث ، ويتلقى الاوامر ، بأن يتواضع ويلوث يده بمساعدة من يكرهه أو ينفر منه ، كأنه يلعق الابرص ، ليحوز رضاء صاحب

الامر وخالق الكون .

وفي الصباح ، كان زهدي يطرق باب منيرة . ودخل عليهــا حجرة نومها وايقظها ، وسألها من اين جاء لها ذلك الولد . قالت له وهي تفرك النوم من عينيها ، انه ولد غلبان ، صاح فيها يسـألها ماصلتها به ، فقالت له كلاما ملتويا غامضا ، خلاصته أنها احبتــه كابنها ، فشتمها وسبها ، وطلب منها أن تقول له اى شيء آخــر ، غير هذا الكلام الفارغ عن الحب ، ولكنها صممت فى عناد ان هــذه هي الحقيقة . الولد جاء الى البيت مع احد الزبائن الذى كان يتحدث معها ، بينما جلس « تو » صامتا ، ولم تنتبه اليه ، ولم تكترث بامره، فقد بدا لها أنه جاء كتابع او سكرتير للرجل ، وحدث أن نهض «تو» فجأة وقال لها متلعثما ، انه ذاهب ليشرب ، فسألته بدهشة هل يعرف مكان الفريجيدير والمطبخ فقال ببساطة ، انه لا يريد أن يزعجها وأنه سيعرف طريقه ، وتركته لحاله ، ومضت دقائق قبل أن تنتبه الى غيابه ، وشعرت بخوف مفاجيء فنهضت تبحث عنه ، ودخلت عليه في المطبخ ، فماذا وجدت ، كان « تو » قد شمر عن ساعديه ، يغسل الاطباق والصحون فى الحوض . كان منهمكا فى عمله بحماس وكأنه فى بيته . فاجأها المنظر تماما ، واذا بها تقول له يا ابنى . وكان يضحك ، وقال لها يا « تانت » وأنه لاحظ أنه لاتوجد شغالة فى البيت ، وانه فكر في أن يساعدها ، كانت لا تصدق ماتراه ، وعادت مسرعة الى الزبون تروى له ماشاهدته ، فلم يدهش لما سـمعه ، وقال لها ، انه شاب ملحوس . ولكنه طيب القلب الى درجة الهبل . وعندما حانت لحظة انصراف الرجل ومعه تو . امسكت منيرة بيد تو ، وسألته بكل مايحتويه جسدها الضخم من فضول ، ما الذى جعله يفعل مافعل ، فارتبك وتلعثم ، ولم تفهم منه سوى قوله ، انه وجد شيئا يستطيع أن يفعله فى تلك اللحظة ففعله . فقالت له ساخرة وما الذى تطلبه الآن لقاء عملك ؟ فاضطرب واحمر وجهه ولم تستطع منيرة أن تتبين من خلال لعثمته سوى كلمة ابدا .. ابدا .. وبعد مرور حوالى اسبوعين ، فوجئت به منيرة يطرق بابها . انا كنـت بالقرب من هنا يا « تانت » قلت افوت عليكي .. حاولت أن تعـرف سببا آخر لمجيئه غير رغبته في رؤيتها فلم تفلح . ومرة اخرى أكد لها الزبون الذى جاء به لاول مرة ، أن « تو » هكذا ، واضــاف محذرا ، انه قد يفعل معها مثلما يفعل معه ، فهو أحيانا يهبط عليه في بيته ، ويقضي عنده أياما قد تطول الى اسبوع واكثر ، ولــكن

« تو » لم يحاول أن يبيت عندها أبداً ، كان يزورها وكأنه قريب ، بينه وبينها صلة دم أو نسب ، ووجدت نفسها تعتمد عليه احيانا في بعض أمورها ، فكان يلبي طلباتها بسرعة حقيقية ، اذهب يا « تو » لشراء كذا وكذا من السوق . فوت على الاجزاخانة ، التليفون عطلان كلم النمرة دي وقول لفلان كذا وكيت .. حتى جاء وقت فكرت فيه أن تستخدمه لقاء اجر ، ولكنه كان يذهب فيختفي أسابيع ولا تدرى اين ذهب ، ثم يعود فجأة ، وفي يده زهرة قطفها من حديقة عامة . ولد غريب ، غير طبيعي ، ولكنها أحبته . حتى البنات اللاتى يدرن في فلك منيرة احببنه . كان يضحك معهن وكأنهن شقيقاته . واحيانا كن يتخاطفنه ليذهب مع واحدة منهن الى السينما في يوم تكون خالية فيه من الشغل . لم يحاول أبدا الاقتراب من واحدة منهن ، حتى خشيت منيرة أن يكون الولد فاقدا لرجولته ، فتدبرت الامر مع البنات ، واتفقت مع واحدة منهن كانت أكثرهن تعلقا به ، وسمحت للبنت ان تكشف رجولة تو ، وهيأت لها الظروف في بيتها ، رغم أن منيرة لا تسمح ابدا بأن يتم اى فعل من هذا القبيل في بيتها ، أن بيتها هو بمثابة الادارة العامة التى تتم فيها الاتصالات ، وتعقد فيها الاتفاقات ، اما التنفيذ ففي اماكن اخرى ، هذا شرط أساسي لضمان استمرار صلتها الودية بشرطة الاداب . ولكن من قال أن « تو » زبون . انها تعتبره واحدا من اقاربها . بل هو اصبح بمثابة ابنها . واعدت منيرة الاحتفال المناسب . ملوخية بالارانب ، وسهرة عائلية مع تو وسعاد حتى منتصف الليل ، ثم الحاح من منيرة أن يقضى «تو» الليل في بيتها ، ولم يذعن حتى قالت له أنها تحتاج اليه في أمر هام في الصباح . وانتظرت منيرة اللحظة المناسبة التى تنسحب فيها ، تاركة تو مع سعاد وحدهما ، ولكن « تو » لم يبد عليه أنه قد فهم شيئا آخر ، غير أن منيرة هى « تانت » وان سعاد شقيقته . واضطرت منيرة أن تضع النقط على الحروف . قالت له بصراحة . ان لديها حجرة نوم واحدة غير حجرتها الخاصة ، وان في تلك الحجرة سريرا سوف ينام عليه ، وقد أعدته لراحته ، ثم قالت له ان سعاد سوف تقضي هي الاخرى ليلتها في البيت وسوف تنام مع تو في نفس السرير ، وفي الصباح قدمت سعاد تقريرها الى منيرة ، وكان تقريرا مطمئنا تماما عن رجولة تو . رغم اعتراف سعاد بأنها هى التى قامت بكل المقدمات الضرورية للوصول الى معرفة الحقيقة

وكانت هذه هي أول عملية تقوم بها منيرة مجانا لوجه المعرفة ، لا من أجل المال . الطلب الوحيد الذى طلبه « تو » من منيرة ، هو ، اذا ماكانت تعرف احدا مهما يستطيع أن يتوسط له للعمل فى فندق فلسطين . عندئذ فقط فكرت منيرة فى اللواء زهدي . وكان ماكان .

رغم أن زهدي استراب مما كانت ترويه له منيرة ، وخيل اليه اكثر من مرة انها تسرح به ، الا ان نفس الريبة داهمته بشعور آخر على النقيض من الريبة والشك ، فقد طفى عليه احساس بأن هذا الذى حدث بين منيرة وتو ، كان أيضا من تدبير الاقدار ، هى التى جعلت هذه المرأة الجبارة تلين وتحب تو ، وتعامله كابنها ، هى التى حطمت كل مافى هذه المرأة من جشع ولا مبالاة بأى مخلوق فى الدنيا لا تكسب من ورائه قرشا . انه يعرف منيرة جيدا ، امرأة تتاجر بالاعراض ، تبيع نفسها وتبيع ابنها ، لتكسب من الدعارة ، فما الذى جعلها تتحول على هذا النحو مع « تو » بالذات . نعم ، أنها مشيئة عليا ترتب الاسباب ، ليشق « تو » طريقه واصلا الى زهدى . انها ارادة الله ، قذفت بتو نحو زهدى عن طريق منيرة بيجو ، قذفته سؤالا تمتحن به الاب ، وتنتظر منه الاجابة ، فاذا نجح انقذت ابنه ، واذا فشل قضت عليه .

قال زهدى لمنيرة :

ــ سوف أساعده .

فتهلل وجهها فرحا ، وهجمت عليه تقبله ، فدفعها بكلتا يديه ، شاتما لاعنا موجها اليها والى تو كل مايعرفه من الفاظ قذرة بذيئة . ولكن منيرة لا تهتم الا بالتصرفات العملية والنتائج ، كانت شتائم زهدى أكاليل ورد تعنى انتصارها فى تحقيق رغبتها فى مساعدة « تو » . ويهتف زهدى فى وجهى فيما يشبه الصراخ ، انها ليست رغبتها . . مستحيل . . انها رغبته هو ، ورفع اصبعه الى السماء . وكان منظره ساذجا شديد البلاهة . وكان رغم ذلك قويا مؤثرا .

وقبل أن ينصرف سألها ذلك السؤال الذى كان يريد أن يبدأ به . هل تعرف شيئا عن عائلة تو . قالت له أنها لا تعرف الكثير . وانها سألته عن أمه ، فقال انها تعيش فى طنطا مع عمه الذى تزوجها بعد موت والده . وانه يعيش وحده فى الاسكندرية . فسألها وهو يتظاهر بجمع معلومات قد تفيده فى البحث عن وظيفة مناسبة اذا ما كان قد حدثها عن أبيه . فقالت له انها لا تعرف عنه شيئا سوى أنه مات وشعر زهدى أنها تكذب ، ولم يقتنع بأن هذا هو كل ماتعرفه ، ولكنه

فضل أن يحتفظ بشكوكه لنفسه . وسالها اخيرا وهو يودعها ، اذا ما كان تو يعرف من هو زهدي . فانطلقت منيرة في نفاق لا يفيد ، قائلة ان كل الناس تعرف من هو زهدي بك وتعرف اهميته ونفوذه

فاضطر أن يسالها وهو حانق ، عما اذا كان تو هو الذى اقترح وساطته أم هى . فقالت منيرة أنها هى التى فكرت في ذلك . ثم سألته فى خوف حقيقى اذا ماكان قد عدل عن رايه او أن هناك شيئا مالايرضيه فقال لها أنه لا شيء هناك . وطلب منها أن يتصل به « تو » فى النادى ليخبره بما يستطيع أن يفعله . .

وهنا سكت زهدى . وبدا لى انه مرهق . اسند ظهره الى المقعد وملأ صدره من شهيق طويل ، يعقبه زفير لاهث ، يكاد لا ينتبه الى وجودى ، ولزمت الصمت ، ولو كان قد طلب منى في تلك اللحظة أن أتركه وشأنه لفعلت ، فقد رثيت لحاله ، وشعرت نحوه بشفقة حقيقية ، أحرجتني حتى فكرت فى أن أستأذن منه وانصرف ، لولا أنه بدا كمن يفيق . ويعتدل فى جلسته ويقول لى وكأنه نسى تماما ماكان يتحدث عنه . . انه يعرف تاريخ منيرة ، وجعل يثرثر بكلمات عنها ، قال انها كانت بنت ناس طيبين ، وان جمالها المروع في صباها هو الذى انتهى بها الى هذا المصير ، زوجوها وهى فى سن المراهقة من ضابط صغير طائش كان يتركها وحدها ويلعب القمار ، واذا خسر عاد الى البيت ولازمه ونكد عليها بالشتيمة والضرب واذا كسب فلا ترى وجهه ، وانتهى بها الحال الى التعرف الى سيدات فاسدات من الطبقة الراقية ، تعرفت عن طريقهن باعيان باشوات أيام كان الاعيان اعيانا والباشوات باشوات حقيقيين لاكباشوات السينما والتليفزيون فى هذه الايام ، وفتن بمنيرة «ع» باشا الذى كان وزيرا للاوقاف يوما ما . وكانت له شهرته المدوية فى عالم الهلس والمغامرات النسائية، وقدعرفه زهدى وجلس معه فى شبرد القديم الذى احترق . ورآه يشرب الويسكى فى فنجان شاى . ويقول ان الويسكى حلال شرعا . لانه ليس خمرا فهو مقطر والمقطر حلال والمخمر كالنبيذ والزبيب هو الحرام . وكان « ع » باشا هو المنقذ لمنيرة من زوجها . فقد تدخل فى الطلاق ونجح فيه ، واشترى لها أيامها عربة فورد فارهة ، كانت تركبها وقد ارتدت معاطف الفرو الثمين ، وزينت جسدها باللؤلؤ الحر ، وتدلى من أذنيها قرطان من الماس ، ورأى زهدى اساور الذهب البندقى فى شكل ثعابين تتلوى على ساعد منيرة من رسغها حتى منتصف ذراعها .

كانت آية في الجمال والروعة والابهة . ذات مرة رآها مع الباشـا في بنوار فى الاوبرا الايطالية وكان قد حصل علي تذكرة من صديق له . ولم يشاهد شيئا في الاوبرا ، ولم يسمع غناء . كانت عينـاه لا تغادران وجه منيرة ، حتى لفت اليه الانظار ، ولكنه لم يهتم . ثم انقلب الحال . وضاع الباشا مع من ضاعوا من رجالات البلد . وقضى بعض الوقت ضيفا في السجن ، ولكن زهدى - وكان مازال ضابطـا صغيرا في مصلحة السجون - استطاع أن يجعل من حياة « ع » باشا في السجن احسن من حياة نزيل الهيلتون او الشيراتون . كان لديه كل شيء ، ولا احد يناديه الا بلقبه معالي الوزير ، وسعادة الباشا وكان الطعام يصل اليه كل يوم في شبه وليمة ، صوانى الحمـام المحشو بالفريك ، والديوك الرومى والارز بالخلطة المضبوطة بالزبيب والصنوبر والبندق ، والتفاح الامريكانى ، والكنافة والبسبوسة ، وكانت منيرة هذه تبيع من مصاغها لترسل للباشا الهدايا ، أحـدث الولاعات وعلب السيجار روميو وجولييت وبارتجاس وكوفيات كشمير وكل مايحبه قلبه . وكان ضباط المصلحة الكبار يزورونه من وقت لآخر لتلبية كل طلباته ، احيانا يذهب الى المستشفى ، وتفتـح له الزيارات ، وهكذا عاش في نعيم وقضى فترة استجمام * ثم خـرج وسافر الي أوربا . وبعد سفره تدهورت حال منيرة التى ارادت ان تصحبه فرفض وتخلي عنها . وبعد سنوات كانت الاسكندرية تتحدث عن منيرة فورد التى تبحث عن باشا آخر فلا تجد ، حتي تحطم الوهم ، وواجهت الحقيقة المرة وباعت الفورد التي كانت تستخدمها في صيد رزقها ، واصبحت كجندي فقد سلاحه فسرعان ماتلقت الضـربة القاضية بالقبض عليها ودخلت السجن ، وخرجت منه مضعضعة ولم تعد كما كانت ، ولكنها أصبحت امرأة مجربة سافلة عريقـة في السفالة . ومع ذلك فهى علي صلات حسنة بالشرطة ، تقـدم لهم مايطلبونه من معلومات ، ولا غرابة في هذا ، فالشرطة لا تستطيع ان تقبض على كل مومس فى البلد ، والا ضاقت السجون بهن ، واضطرت الدولة الي بناء عشرات السجون الجديدة . ان قوة شرطة الاداب لا تجرى وراء كل مومس ، انه يكفيها أن تسيطر على الموقف ، فالدعارة ستظل موجودة ، ومن المستحيل منعها .

ورفع زهدى يده كأنه يتدارك شيئا وقال :

- لا مؤاخذة .. فى الحقيقة أنا كنت اريد ان اتذكر كيف التقيت

بالولد تو في النادي فسرحت وحدثتك عن منيرة بيجو ، على فكرة انا الذي غيرت الاسم .. قلت لها ان الاسم المناسب هذه الايام هو البيجو .. لان الذين يذكرون الفورد هم العجائز امثالنا .

ابتسمت له مشجعا ، رغم أن الكثير مما كنت اشعر به نحوه من شفقة قد تبدد مع هذه الشطحة التى اندفع فيها ، كنت لا املك منع نفسى من المقارنة بين الكيفية التي استقبل بها والد « تو » فى السجن والحفلة التي اقيمت له ، وذبح فيها الرجل ، وبين تلك الولائم التى تذبح فيها الديوك الرومية من أجل « ع » باشا ، والتكريم الذى يقابل به هو وامثاله في المستشفيات للعلاج والتمريض والاستحمام باسم السجن . كنت أواجه هذا الانحطاط العقلى والاخلاقي السافر الذى يجعل زهدى يتكلم باعجاب وامتنان عن جمال منيرة عشيقة الباشا ، لانها ترفل فى الحرير والفراء وتزدان بالجواهر والماسات وتركب عربة فورد فارهة ، ثم يتحدث عنها كامرأة سافلة فى مستنقع او صفيحة زبالة ، لان الجاه والمال قد تخليا عنها . ان هذا الرجل لا يدرك مدى مافي عقليته ونفسيته من تشوهات ، وهو لا يدرك ان مجرد وجوده وتسلمه لأى نوع من السلطة ، بل ان مجرد احتكاكه بالاخرين كفيل باحداث عاهات فى نفوسهم . ولكن مهلا . لا يجب ان اندفع وراء انفعالاتى . ويجب أن الزم الحذر ، حتى يكمل تصورى هذا اذا استطعت حقا أن أصل الى صورة متكاملة لهذا الذى اكتب عنه .

وسمعت زهدى يروى لي كيف دخل عليه « تو » النادى ، وكان قد شذب شعره بعض الشىء ، ولم يشك فى ان منيرة قد تدخلت فى ذلك . كان زهدى يتفرج على بعض لاعبى البريدج انتظارا لدوره ، وترك تو واقفا . وقال له فى حنان لم يكلفه الكثير ليصطنعه لانه كان يفكر في ابنه « اسمع ياشاطر سوف أساعدك ، وان شاء الله سيكون ذلك قريبا . ولكن لا تقل كثيراً على موضوع فندق فلسطين » فقال له تو على الفور ، انه سعيد بأى عمل ، وبرر ذلك بحاجته الى المال لانه يعيش مستقلا عن اهله . وهنا ساله زهدى مباشرة عن ابيه فقال تو انه مات . ساله زهدى ، من هو ، ما اسمه وماذا كانت وظيفه . قال تو انه كان مدرسا . ولم يذكر اى شىء عن مقتله . وقال زهدى مواجها تو الذى كان يتلعثم فى اجاباته :

ــ انا يا ابنى ضابط وأعرف من هو ابوك .

فأجاب تو بسرعة مرتبكا :
ـ سعادتك تقدر ظروفي .
ويقول زهدي معلقا على هذه الاجابة انها كانت تبدو صادقة . موحية بأن تو لا يعرف شيئا عن صلة الرجل الذى يخاطبه بأبيه . ومع ذلك فهناك احتمال ضئيل بأنه بارع فى التمثيل . ولكن على أية حال كانت لا تبدو على تو شراسة ، أو مايشير الى انه يعتزم أمرا طائشا ، وتشجع زهدى فانسحب من مائدة البريدج ، وجذب تو من يده الى ركن فى النادى وأجلسه ، وجعل يسأله عن صلته بمنيرة ، وما اذا كانت تعرف شيئا عن أبيه . فأجاب تو بانه قال لها فعلا أن والده مات فى السجن . فقال له زهدى فى وقاحة سافرة . انه يدرك الان سر اعجابها به ، فهى أيضا كانت نزيلة السجون مثل ابيه ، ولم يبد على تو اكتراث بهذا الحديث ، ومرة اخرى شعر زهدى بالاطمئنان ، الولد يتقبل منه كل شيء . واذا كان لا يفعل ذلك عن عمد ، فلابد أن الاقدار هى التى جعلته طيعا لتسهل مهمة زهدى فى مساعدته .. وقال زهدى لتو ، ان عليه أن يمر عليه بعد بضعة ايام حتى يكون قد نظر فى أمره . ويعجب زهدى مما حدث له بعد ذلك ، فقد وجد نفسه غير قادر على التحدث مع احد فى مساعدة تو . رغم أن العشرات من الموجودين فى النادى يستطيعون بكلمة واحدة منهم ان يتوسطوا له فى وظيفة هنا او هناك . وكان تو يتردد على الناى ، فيطلب منه زهدى الانتظار يومين آخرين ، وتعود « تو » على دخول النادى ، واستطاع بسرعة غريبة ان يتعرف على كثيرين من أولاد الاعضاء فى مثل سنه ، وجلس معهم يلعب البريدج . وفوجيء زهدى بمن يسأله ذات مرة ، عن « تو » وصلته به . واذا به يجيب فى عصبية :
ـ مالكش دعوة يا أخى .
وبدأ يسمع الهمسات التى تدور هنا وهناك ، وهو قادر على تبين مايدور فى الخفاء ، وعرف انهم قالوا أن زهدى قد استعان بهذا الولد فى أعمال خاصة بالمباحث او المخابرات .. وسكت ، وقال لنفسه ، ليتوهموا اى شيء .. ملعون ابوهم .. بل سره انهم خائفون .
والتفت زهدى الى وسألنى :
ـ هل خفت انت أيضا ؟
قلت له :
ـ طبعا ..

فضحك ، وقال :
ــ طبعا ستحكى لهم كل ماورويته لك الان .
قلت متحيرا وقد فاجاني بالسؤال :
ــ لا ادرى .
قال :
ــ أتريد أن تحتفظ به لتكتبه في رواية .
قلت مرحبا بهذا المبرر الذى ساقه لي :
ــ فكرة .
فقال :
ــ في الحقيقة .. أنا لا يهمني أن تقول لهم حقيقة الولد .. لولا خوفى من أن يسيئوا اليه . على الاقل من باب الرحمة أو الانسانية .. لو عرفوا أن والده كان شيوعيا .. فلن يرحموه .
قلت فى دهشة :
ــ حتى لو عرفوا كيف مات .
قال متفاخرا :
ــ لو عرفوا .. سوف يمنحوننى نيشانا .. هل تشك فى هذا ؟
قلت :
ــ ابدا .
فحدجنى بنظرة طويلة .. قبل أن يقول ، انه وجد نفسه فى نهاية الامر يدخل معركة مع اعضاء النادى عندما قرروا طرد تو ، لانه يتردد على صالة اللعب ، ويختلط بالاولاد .. مع أنه ليس عضوا .. فلما شخط فيهم زهدى ، سارعوا بتعيينه معاونا لصالة البريدج .
ــ وهكذا استرحت .
فسألته :
ــ كيف استرحت .
قال كالمخاطب نفسه :
ــ فى الحقيقة .. كنت أريد أن يبقى الولد بالقرب منى .
فسألته مستفسرا :
ــ اشعرت بعاطفة أبوة ؟
قال وهو يصدر شخيرا بذيئا :
ــ ابوة .. ربما ياسيدى .. انها حالة ركبتنى .
فقلت له :
ــ ولكنك انزعجت عندما علمت بحكاياته مع رجال الشرطة

ومشاجراته التي لاتنتهي .
فسألني باهتمام :
ـ مارأيك انت ؟
قلت :

ـ لا أدري .. ربما كان ماحدث لوالده . هو السبب ..
قال زهدي مفكرا :
ـ اي هو يعرف .. ولكنه لا يعرف اني كنت الرجل الذي اشرف على العملية .

قلت مترددا :
ـ من يدري .
قال لي زهدي فجأة :

ـ لقد فكرت في مصارحته .. ولكني لم استطع .
قلت مؤمنا على كلامه :

ـ لا اظن انك تستطيع .
فقال وهو يزفر الهواء بقوة :
ـ اليس هذا امتحانا غريبا .

ثم عاد وقال مؤكدا .. انه واثق ان تو لا يعرف عنه شيئا لقد ذهب الى منيرة وواجهها بانها أخفت عنه ان تو قال لها أن أباه كان نزيل سجون ، فاصفر وجهها ، وحاولت أن تعتذر له بانها خافت أن تسيء هذه المعلومة الى الولد ، وفرح زهدي بما سمعه ، فمعنى هذا انها لا تعلم صلة زهدي بوالد تو ، ولو كان تو يعلم لقال هذه المعلومات لمنيرة .. الا اذا كان ذلك الاحتمال الضئيل بانه يدبر أمرا مازال قائما وانه يجيد اداء دوره ببراعة حتى على منيرة نفسها .. وقد اختلطت مشاعر زهدي بين الفرح والشك ، فلم يتمالك نفسه في ذلك اليوم وانهال ضربا على هذه المراة الضخمة ، كما لم يضرب في حياته انسانا ، ولكنها تحملت ولم تفتح فمها بكلمة واحدة .. كانت تقول له وهي تتلقى الضربات .. انه صنع لها جميل العمر كله .. بتعيين تو في وظيفة في النادي .

وفجأة ، عاد زهدي يحدجني بتلك النظرة الطويلة التي لم افهم سرها ثم قال ان ضابطا كبيرا مثله ماكان ليهتم بمصير ابن مجرم خارج على القانون ، لو ان ذلك المجرم فكر في مستقبل اولاده ولم يعرضهم

للضياع بمغامرأته الشيوعية .. وقال زهدى انه يحمل كراهية خاصة لهؤلاء الشيوعيين ، لان وجوههم كالحة واغلبهم يستعمل النظارات ، ولانه عندما يتعامل مع المجرمين الاخرين ، يستطيع أن يتبادل معهم الكلام ، أحيانا يقولون له نكتة أو يقول هو لهم نكتة . هذا ممكن مع قاتل أو تاجر مخدرات أو لص أو نشال .. انهم على اية حال بشر .. اما هؤلاء الشيوعيون فالعياذ بالله .. لهم طريقة سمجة فى الحديث ، وأفكارهم غامضة ملتوية ، وينظرون اليك نظرات ثعبانية لئيمة وكل همهم هو افساد عقول الشبان ، وباختصار .. هكذا قال زهدي مؤكدا فى نهاية شرحه لكراهيته الخاصة للشيوعيين ، ان اى ولد قصير نحيف .. منكوش الشعر يضع نظارات سميكة على عينيه ويتكلم بعصبية وحدة .. هو شيوعى .. ودليل زهدى على صحة كلامه هو مقالات كتبها الاستاذ العقاد عن هذه النماذج الشيوعية .

وعاد يحدجنى بنظراته الطويلة الغريبة ، وكانه ينتظر منى أن اقول شيئا .

فقلت :

ـ انا لم اقرأ هذه المقالات .

فاذا به يسألنى :

ـ انت معى .. ام لا .

سألته :

ـ ماذا تقصد .

قال فى ضيق ونفاد صبر :

ـ هذه اجابة من يتهرب من الاجابة ، لو كنت ضدهم .. كنت اجبت بالفم المليان .. ان الشيوعيين ولاد كلب .. اما ان تسألنى .. ماذا اقصد .. فهى تعنى انك شيوعى .

قلت ضاحكا :

ـ لن تحاكمنى يازهدى بك .

قال باسما وقد خفض صوته :

ـ اسمع .. أنا أريد ان أفهم منك حقيقة الامر .

ونسى تماما كل كلامه السابق وأحكامه القاطعة عن الشيوعيين .. واذا به يقول لى وهو يغمز بعينيه ..

ـ اذا كنت شيوعيا .. فافهمني .. ماهى حكايتها . اريد ان اتاقلم مع هذا الكلام عن الاشتراكية والتقدمية يا اخى .

الفصـــل التاســـع

كان من المستحيل ان يدور بيني وبين زهدى حوار له معنى حول الشيوعية أو الاشتراكية ، ان الرجل لا يريد أن يفهم أو يقتنع بشيء ان مطلبه بسيط وواضح . مطلب الرجل الانتهازى ، الذى يرى ، كما يقول ، ان بعض من فى السلطة يتحدثون عن الاشتراكية ، وبعضهم افكاره ماركسية بل كان معتقلا تحت قبضته فى السجون ، فلماذا اصبح لهؤلاء سلطة ونفوذ ، بينما ضاع منه كل شيء ، واصبح لواء على المعاش .

كان يريد ان يفهم سر اللعبة . وكانت لا تعنيه الافكار والمبادىء فقد حاولت أن اشرح له ، فقاطعني فى ضيق ورفض حاسم لأى كلام نظرى ، انه يريد أن يعرف العلاقات الشخصية ، الصلات الخاصة التى ادت بهذا أو ذاك الى مناصب الوزارة او مراكز السلطة . وكان يؤمن بأن تعدد الاراء والاتجاهات بين المسئولين ، له هدف واحد ، هو ان يكون كل واحد منهم رقيبا علـى الاخر ، يحد من توغل نفوذه أو تضخم سلطته . فلان له اتجاه اخوانى فلا بأس من أن تضـع فى طريقه فلانا الشيوعى . وهذا الوزير عقليته أمريكية فلابد أن يكون وكيل وزارته أو الوزير الذى يتولى وزارة اخرى متصلة بأعمال وزارته له صداقات مع الاتحاد السوفييتى . كان زهدى يتصـور تشكيل المناصب والمراكز وكأنه طبخة « تورلي » تحتوى على البطـاطس والفاصوليا والكوسة والباذنجان وكل مايخطر او لا يخطر بالبال ، ليأكل الجميع وينبسط الجميع ، وقال لى مازحا ، انا قمت ياسيدى بدور الكوسة وانتهى أمرى الى ما انتهيت اليه ، فلا بأس من أن اقوم الان بدور الباذنجان أو الفاصوليا ، وعبثا حاولت ان أفهمه أن لعبة السياسة اخطر من هذا ، وان القضية ليست فى ان يأكل وينبسط ويتمتع بالنفوذ مئات أو بضعة آلاف يدورون فى تلك المناصب ، بل هى قضية مصالح ملايين غفيرة تسعى للحصول على حقها فى الحياة الكريمة ، لم يفهم ابدا ان الاتجاهات المختلفة والاراء المتعددة المتعارضة تعكس حلولا مختلفة ، وقناعات متعارضة حول مصـير هــؤلاء الملايين .

وأوقف زهدى الحوار بيننا ، قائلا لى بصوت جاد ، ان كلامى هذا على وجه التحديد ، هو الذى يؤدى بصاحبه الى السجن ، وانه يحذرنى من ترديده ، وهو ينصحنى بحكم خبرته الطويلة ، فالذين يقعون فى الكمين وتبتلعهم غياهب السجن ، هم أولئك الذين يتحدثون بهذا الكلام النظرى ، وهم حمقى ، ولا ينصاع الى كلماتهم الا الشباب الاخرون ، فيحدثون هياجا وفوضى ، ومن هنا يتحتم الايقاع بهم وضربهم ، كان زهدى يحدثنى بحرارة الصديق ، الخائف على مصيرى ، والذى يدعونى الى ان أسلك معه الطريق الصحيح ، طريق توطيد مابيننا من علاقات شخصية ، وأن نساعد بعضنا بعضا مستغلين مالنا من علاقات لندخل فى طبخة التورلى ، أو يكون لنا فيها نصيب ، وهكذا تركته فى تلك الليلة وقد اضاف الى شعورى بالخوف من اهوال التعذيب والبطش شعورا افدح بالعجز . والذى حدث بعد تلك الليلة انى قضيت فترة طويلة لا استطيع التردد فيها على النادى ، ولا الاتصال بزهدى ، ولم يكن ذلك بسبب قرار اتخذته او سلوك معين أتبعته ، بل كان ذلك أشبه باستسلام لمشاعر غامضة تدفعنى الى تأجيل التردد على النادى مختلقا اعذارا تافهة ، وقضيت تلك الفترة اتردد على قهوة الشطرنج بميدان المنشية ، العب فيها الشطرنج من الصباح حتى المساء ، مكتفيا بسندوتشات الفول او الفلافل لا افكر فى شىء غير المربعات البيضاء والسوداء ، تتحرك عليها قطع الشطرنج ، وكنت اذا ارهقنى اللعب لا اغادر المقهى ، فاجلس اراقب اللاعبين الاخرين ، لا عمل لى فى الحياة غير تتبع الملوك والوزراء والفرسان والبيادق يتحركون فوق المربعات حتى يصبح احد الخصوم كش ملك مات .

فيثور صخب وضجيج ثم تنتصب القطع من جديد فوق المربعات ويبدأ صراع جديد . ولا أدرى كم كان يستغرقنى مثل هذا الادمان ، لولا اصابتى بانفلونزا حادة لزمت معها الفراش ، وهاأنذا أبدا نشاطى بعد ايام المرض بكتابة هذه الاوراق . فما الذى وصلت اليه ؟ . ويجب أن اعترف انى اثرت كثيرا من الاسئلة الشجاعة ولكنى لم اكتب حتى الان اجابة شجاعة واحدة ، سألت نفسى هل انا عاجز عن مواجهة اعمال البطش والتعذيب والقتل ، لو كان الامر موتا فحسب لهان بعض الشىء ، ولكنهم يقيمون الحفلات التى يهدرون فيها رجولة الانسان ويتفننون فى تحطيمه وهو مازال حيا .

هل هذا هو الذى يخيفنى الى درجة الشلل ؟

سألت نفسي عن قيمة الكاتب الذى يكتب للناس وهو خائف مما قد يواجهه ، هل اقبل نصيحة زهدى ، الذى فهمته تماما بينما عجز هو عن فهمى ، لاداعى للاستسلام للانفعالات ، ولاداعى للتورط فى خيالات رومانتيكية مع منظر البحر وصيادى سمك المياس الذين تبدو مراكبهم فى الافق ..

لقد عجزت عن شرح قضية السياسة لزهدى ، فهل انا افهمها حقا ، ولكنى طوال حياتى وانا احاول أن أفهم .. والشيوعية والاشتراكية بينى وبين زهدى ، هو الحوار الوحيد الذى عرفته ، انى اختزن فى ذاكرتى العشرات من المواقف التى دار فيها الحوار بينى وبين الآخرين ومن كل موقف خرجت بفكرة ، ورسب شىء فى أعماقى ، كنت اسير جنبا الى جنب مع ذلك الكاتب الشيوعى « ب » فى غابة صنوبر بالجبال وكان الثلج يغطى الارض ، وقال لى الرجل :

ــ أنا شيوعى ، ولكن عشرة فى المائة فقط من الشيوعيين هم الذين يستحقون الاحترام ، الباقون مازالوا فى حاجة الى تهذيب وتثقيف يخلصهم من الجهل ..

وسألته فى دهشة :

ــ اهذا رأيك ؟

قال وهو يحذرنى من ان اتزحلق واسقط على الثلج :

ــ عندما تقول اننى اعيش لكل الناس ، وعلى استعداد لان اهب حياتى من اجلهم ، وتطلب ان يأخذ كل انسان بمقدار عمله ثم بمقدار حاجته .. فلابد أن تكون قد وصلت الى درجة عالية من التربية والثقافة ، الناس يولدون كالاطفال .. غرائزهم نهمة جشعة .. تمتد ايديهم الى كل شىء تقع عليه عيونهم يريدون اختطافه وتملكه ، ان الاطفال أشد المخلوقات انانية وفردية ، ولذلك كان لابد من تربيتهم وتثقيفهم .. وهذه التربية لا يصل اليها حاليا الا القليلون .

كان يتحدث بانفعال وحماس .. فنسي فى غمار حديثه ان يحذرنى فاذا بى اتزحلق .. واجد قدمى تنزلقان واطير فى الهواء لاسقط على ظهرى فوق الجليد .

وصاح الرجل فزعا وهو يمد يده الى .

ــ هل اصبت ؟

قلت وانا انهض واحرك ساقى :

ــ حمدالله .. لم اصب ..

قال باسما :

ـ ان الله فى عقلك .. وليس هناك يتسلى بمراقبتك فى السماء .. ان مستشفيات تشيكوسلوفاكيا جميلة ، ولكنى لا اريدك أن تقضى أيامك هنا فى المستشفى ..

واذكر ذلك الشاعر فى وسط آسيا ، ونحن نجلس فى مزرعة جماعية بجوار سمرقند ، وقد دعانى الى الشاى ، فاذا به يتكلم بلغة الشعر . والفودكا والبراندى ، هما عنده الشاى ، وقال لى :

ـ عندما قامت الثورة .. ظن الناس أن كل شيء أصبح ملكا لهم ، فانقضوا على كل شيء ينبهونه .. حتى أخشاب ومقاعد عـــربات القطارات فكوها وحملوها الى بيوتهم .. سرقوا المخازن .. لم يسلم شيء وقع تحت ايديهم .. كان الفارق هائلا بين تعاليم ثورة وغرائز ناس ..

ثم صمت برهة وقال :

ـ اضطررنا أن نبحث عن حراس مسلمين متدينين لحراســة المخازن .. ان المبادىء الجديدة لم تتأكد بعد فى النفوس ، واذا كانت غير واضحة تماما فى العقل فلا شيء يقف حائلا بين الانسان والاندفاع وراء غرائزه وشهواته الخاصة ، نعم كان الحراس المسلمون يساهمون فى حراسة ثروات مجتمع اشتراكى .. لان تعاليم الدين تمنعهم من ارتكاب السرقة .

وهناك فى مقهى امام محطة مترو مونبارناس فى باريس ، جـلس الصحفى الاشتراكى الفرنسى ، بجسمه الضخم يلوك بين شـفتيه سيجارة جلواز ، متحدثا بعصبية :

ـ يقولون ان التأميم استبداد . وان الاشتراكية جـريمة .. ويخيفوننا بمذابح ستالين التى سفكت دماء عشرات الالوف ، ولـكن المبدأ شيء والمذابح شيء اخر .

ونزع الرجل الجلواز من فمه ، وسحقها فى منفضة أمـامه ومضى يقول :

ـ هنا فى باريس شاهدنا مذابح الثورة الفرنســية ، كانت الجيلوتين هى « الفيديت » النجمة التى تسهر باريس حولها ، تتسلى برؤية السكين تفصل الرقاب ، والرقاب تسقط فى السلال .. كان بينها رقاب بريئة ولاشك ، ذبحت باسم الديمقراطية ، والحرية والليبرالية .. أرهاب روبسبير . صرخة مدام رولاند « ايتها الحرية كم من الجرائم ارتكبت باسمك » يومها كان هناك من يقـول فى انجلترا والمانيا والنمسا ، حيث يعيش النبلاء : هذا هو ما جلبتـه

الحرية ، هذه هى النتيجة الحتمية للديمقراطية ، لقد تسلم الاوغاد مقاليد الحكم ، اصبح الرعاع وحثالة البشر هم الســـــادة . نفس الكلمات التى نسمعها اليوم عن الاشتراكية او الشيوعية ، انى ياسيدى لست شيوعيا ، لا احمل بطاقة الحزب ، ولكنى ارفض أن يغرر احـــد بعقلى ، انى ارفض المذابح والقسوة والبطش والاعتقالات واهـــدار آدمية البشر ، ولكن ليس بسبب هذا الرفض ، اختار الغاء عقلى ، فأقول لو كنت معاصرا لأيام روبسبير ، انى مع عودة النبلاء ورجـــوع حكم آل بوربون .. او أقول اليوم بعودة المليونيرات والمحتـــكرين وقياصرة الاسواق والبورصة .

ثم ذلك الامريكى عالم الكيمياء ، فى المقعد بجوارى فى الطائرة التى تقلنا من سانت لويس الى شيكاغو .

ــ سيدى .. اننا جميعا كعلماء نفكر اليوم بالمنهج المادى الجدلى .. لانه حقيقة علمية لاجدال فيها . ولكن الخلاف بينى وبين الماركسيين مازال قائما .

واسأله فى فضول :

ــ كيف ؟

فيجيب :

ــ نحن نطبق المنهج .. ونرفض النتائج الاجتماعية .. المنهج آداة للمعرفة . ولكنه ليس هدفا فى حد ذاته ، النتائج مازالت غير محكومة بمنطق تستطيع ان تسيطر عليه .

واستبعد ذلك الحوار الهادىء فى حديقة شتوية فى موســـكو ، والرجل المفكر البدين يبدو وكأنه على وشك النوم .. ومع ذلك فأفكاره حادة عنيفة .. لا اكاد أصدق انها تصدر عن هذا الجســـد المترهل الكسول . كان الرجل يقول وكأنه يتحدث وهو يغالب النعاس :

ــ لقد عرفت معتقلات ستالين ، كنت احد نزلائها .. لانى رفضت السياسة الجامدة .. انها ليست علمية .. مثلا لا نستطيع أن نقــول علميا أن مجتمعا مثل مجتمعكم المصرى قادر على أن يكون شيوعيا الان .. ان القرارات والاوامر لا تحقق هذا . انهـــا طيش وهــراء ان تحقيق الاشتراكية اولا يحتـــاج الى توآفر ظروف معينـــة .. منها ان تكون الطبقة العاملة قادرة على ان تحكم .. وان تدير عمليات الانتاج . هذا الظرف لم يتعمق تاريخيا بعد عندكم . ان البــــلاد النامية فى حاجة الى مرحلة أولى هى مرحلة التصنيع .. والمصـــانع

تهيىء الظروف لخلق الكوادر العمالية الناضجة .. ثم ارتفع صوته كمن احس بانه يوشك ان ينام فعلا :

ــ ألصناعة باي اموال .. حتي لو كانت اموال المرتشين الذين يسرقون الشعب .. كل مصنع يقام بتلك الاموال سوف يعود فى يوم أقرب مما تتصور الى أصحابه الحقيقيين العمال والفلاحين .

وذلك الاستاذ الجامعي بجامعة القاهرة الذى يحرص على اداء فرض الصلاة فى موعده وهو يقول بحرارة اليقين :

ــ مالها الشيوعية .. انها كأفكار شيء عظيم .. النقطة الوحيدة التى اختلف فيها مع ماركس .. هي موقفه من الدين .

ثم يقول بلهجته الواثقة :

ــ لو كان ماركس عرف الاسلام . لما ناصب الدين هذا العداء .. انه انشغل بسلطة الكنيسة واقطاعها .. فتوهم انها الدين . وعداذلك فما الذى تعترض عليه عندما تنادى بحصول الانسان على ما يحتاجه او بمقدار عمله .. امر عظيم وعادل .. انا شخصيا لست عاملاولست فلاحا ولم أتضور يوما ما من الجوع .. والامر بالنسبة لى هو قضية ضمير . وانا افهم ان كرامتي لا تتحقق الا بكرامة الاخرين . ان سلامة الانسان النفسية والجسدية وقدرته على تحصيل العلم الصحيح والتمتع الحقيقي بالحياة لن يتم وهو يعيش وسط الجهل والشعوذه والسلب والنهب وسوق الغرائز المنصوبه ، لاتوجد بروج مشيدة يستطيع ان يتخفى داخلها الانسان مما حوله مهما كان قدره ومهما كانت منزلته ، ان حريق الجهل يلاحقه ان الجاهل مظلوم وهو فى نفس الوقت يحرق ما حوله ، والمريض مظلوم ، ولكنه شرير . انه جحيم يدمر ويهلك كل ما تمسه يداه . ان الفقر يدعو الناس لارتكاب أبشع الجرائم . والذين يعيشون بجوار هؤلاء يتمتعون بالمال والصحة والعلم محاصرون ، يعيشون بما يتوهمون تملكه فى زريبة خنازير ، ان طعامهم الشهي وملابسهم الفاخرة وسياراتهم الانيقة وبيوتهم الوثيرة لا تحميهم ، انهم يدفعون الثمن ، بقتل احساساتهم بالتمسك بالافكار القذرة والمشاعر الحيوانية والعواطف الشاذة المبتذله .

ــ ولكنهم لا يدركون ان احساسهم ميت ، ويتمتعون بمشاعرهم وثرائهم !!

فصاح غاضبا :

ــ ليكن . لانه لو كان اعمي البصيرة يدرك مقدار تعاسته الهائلة وضاعة حياته ، لكان فعل شيئا كذلك الذى يقدم عليه الزاهد المتصوف .

او ذلك الذى فعله تولستوى عندما واجه الفقر والجهل من حوله .
فمضى يتخلص من املاكه فزعا يريد أن يستنقذ نفسه .. ان الافراد
الاغنياء الذين يعيشون وسط غالبية من الفقراء قد يظنون انهم اقوى
الاقوياء واعظم العظماء . ولكن جهلهم مركب وانحطاطهم مركب . لانهم
لايدركون حقيقة امرهم .. انهم عاجزون تماما عن الفرحة الحقيقية .
لا يشعرون بطمانينة ابدا . لايرون جمالا صادقا ابدا . ان حثالة البشر
من الفقراء ، ليسوا احط منهم الا عندما يصبحون اغنياء على شاكلتهم
.. ان المرضى العاجزين عن مقاومة افتك الامراض خبثا ، تسوء حالهم
اكثر لو انهم تمتعوا بعضلات مفتوله قوية على حساب عقولهم الفارغة
.. انت تقول عن المريض انه مصاب وقد يشفى . اما صاحب
العضلات المفتولة والعقل الفارغ فلا وصف له الا انه غبى حمار .
الفقراء المظلومون ما زال عندهم امل ان يحققوا العدل ، وان يستنقذوا
انفسهم ، يكفى ان يرتفع راس واحد منهم فوق مستوى الهوة التى
سقط فيها ، ليفكر فى العدل ، ويحارب من اجله . اما الاغنياء الظالمون،
فما من امل لديهم ، لقد ضاعت نفوسهم واحترقت .

هل استرسل مع كل هذه المواقف ؟. ما الذى ابغيه ؟ هل اريد
أن اقنع نفسى بانى افهم بعض مايجب ان يفهمه الانسان عن الظلم
والعدل . ولكن ما الفائدة . ان المطلوب ليس الافكار . ان الافكار
ليست كل شىء وقد لا تكون لها قيمة على الاطلاق بلا تصرف وعمل
عندما ترتفع رءوس المظلومين ولو بمقدار بوصة او اقل فوق حماة
الوحل الغارقين فيه مواجهين من خلال تجارب لا حصر لها . مهمة
تحقيق عدالة ترتبط بواقعهم وتعتمد على ماحققه العقل الانسانى فى
هذه الدنيا من انجازات . عندئذ سوف تكون كلمات مثل شيوعية أو
اشتراكية أو عدالة اجتماعية . ليست مجرد كلمات أو شعارات
للمتاجرة . لن تكون كما يتصورها زهدى الوانا من الكوسة والفاصوليا
والباذنجان فى طبخة تورلى . لن تكون مظاهر ولا اقنعة . لن تكون
شيئا يخاف الناس منه ، أو يتباهى الناس به ، يتنكر البعض له
ويتاجر بشتيمته أو يتاجر بمدحه . ترى هل من اجل هذا كان
مصرع والد تو ؟ لابد أن هذا المعنى الكبير ، هو الذى ساعده على ان
يموت متحديا رافع الراس .

((انتهت المسودة))

بعد كتابة تلك الاوراق . عدت من جديد الى مقهى الشطرنج .

ولاحظت أن لعبي قد ساء الى درجة كبيرة ، فكنت أسهو ويشرد تفكيري في لاشيء . فارتكب اخطاء . والقى الهزيمة تلو الهزيمة . كنت عصبيا ، وكنت أشعر بأني انتظر شيئا مالا أعرف كنهه ، وقد تعودت من قبل على نوع آخر من الانتظار ، كان غالبا مايسبق شروعي في كتابة رواية اذ أعاني من احساس مريع بالعدم ، بالخواء المطلق . كأني لا شيء ، صمت رهيب داخلي ومن حولي ، ودمدمة مكبوتة لا تريد أن تفصح عن طبيعتها تنتابني بين وقت وآخر . كنت أسمي هذه الحالة ، مخاض الرواية ، ولكن انتظاري الان يختلف ، فانا خائف وعصبي ، ولا أدري على وجه التحديد ، مصدر الخطر الذي يكاد يحدق بي . وزاد من مخاوفي ، اني بعد فراغي من كتابة المسودة ، شعرت بالعجز عن كتابة اي عمل ادبي . هكذا قلت لنفسي ، وكأني علمت بنبأ نقله اليها بلا تبرير أو تفسير ، متجاهلا اني صاحب القرار في كتابة ما اريد أن أكتبه . وخطر لي أن مرضي بالانفلونزا كان نتيجة خوف ارهقني ، وجعلني عرضة للسقوط في المرض ، وخطر لي أن ترددي على مقهى الشطرنج ، هو ايضا خوف من مواجهة حقائق الحياة القاسية ، كما كشفها لي زهدي . وكما دونتها في مسودتي ، واحيانا كنت اهمس لنفسي ، هل انا هارب من الهول الذي يعدونه في السجون للذين يتجراون بالافصاح عن مبدأ أو راي . ثم شعرت ذات مرة ، وانا جالس احتسي الينسون ارقب مباراة شطرنج ، ان ما اعاني منه . افدح من تلك الضربات والركلات والهراوات التي قد تسقط على راسي وجسدي للحظات ، ثم افيق منها بالموت . لم يعد الشطرنج ، ولا البريدج في النادي ، ولا سهرات في البار ، ولا اي شيء آخر ، يعيد الى حواسي مذاق الحياة . نعم ان هذا الانتظار الفاجع ليس انتظارا فنيا يسبق كتابة رواية . انه انتظار لموقف اتخذه من حياتي كلها . وان كنت لا ادري كيف ، ولا ماذا أختار . سحقا لتلك الاوراق التي كتبتها بمظنة انها ستساعدني على الشفاء . انها كانت نموا لسرطان ، لفوضى في نمو الافكار ، لاختلال في المشاعر يتضخم يوما بعد يوم ، ولا أدري كيف أعالجه . ولا اين . حتى كان صباح ذلك اليوم .

كنت اعبر الميدان في طريقي الى القهوة ، يوم آخر مثل بقية الايام ، عندما رأيته امامي . تو . هاهو يسير هناك ، مندفعا في طريقه ، قادما في الاتجاه المضاد ، وخفق قلبي ، وتهلل وجهي ،

ووجهت اليه عينى ، فى انتظار أن تلتقى العيون . كان يحمل ربطة كبيرة . يبدو ان داخلها كتبا او اوراقا . كان يقترب منى وانا اقترب منه . دون ان ينظر فى اتجاهى ، وأصبحت واثقا انه سيعبرنى دون ان ينتبه الى وجودى بجواره ، بل خشيت ان يرانى فيكتفى بتحيتى براسه ، ويمضى فى سبيله .. ماكنت لارضى بأن يحدث هذا ، لاى سبب من الاسباب . وهتفت باعلى صوتى أستوقفه :

ـ تو .. الى اين انت ذاهب ؟

واقبلت عليه بوحشة كبيرة ، كنت أريد ان اعانقه ، لولا ان وقفته وخطواته لم تسمح لى بالعناق . وسألته فى حماس لم اعرفه منذ وقت طويل :

ـ الى اين ؟

قال :

ـ الى النادى ..

سألته :

ـ وما هذا الذى تحمله ؟

ـ قال دفاتر البريدج ..

واشار بيده فى اتجاه احد الشوارع الضيقة الى الميدان وقال :

ـ كنت هناك فى المطبعة اتسلمها ..

قلت على الفور :

ـ انا أيضا ذاهب معك الى النادى ..

هيا أوصلك ..

نسيت فى لحظة واحدة الشطرنج ، وكل شىء ، ولم ابال بالدهشة التى ارتسمت فى عينى تو وهو يسألنى مستريبا :

ـ هل انت ذاهب الى النادى حقا ؟

قلت بلهفة :

ـ طبعا ..

قال فى عجب :

ـ ولكنك تغيبت عنا لاسابيع طويلة .. اكثر من شهرين ..

قلت له وانا صادق تماما فيما أقول :

ـ فعلا .. ولكن النادى وحشنى ..

كان كلامى ساذجا ، وتفسيرى لموقفى المفاجىء لا معنى له ، فالذى يسيطر على هو شعور قوى بالا يفلت تو منى .

نظر الى ثو في ارتباك ، وسار الى جانبي في طريقنا الى موقف السيارات ، وما كاد يرى سيارتي ، حتى ابتسم وقال :

ـ اتذكر يوم السباق ..

قلت :

ـ نعم اذكره ..

واشرت له :

ـ اركب .. فلن اسابقكَ هذه المرة ..

وتحركت السيارة ببطء ..

الفصـــل العاشـــر

وضع تو أوراق البريدج عند قدميه ، وأطل من نافذة السيارة على يمينه ، معلنا بطريقة غير مباشرة ، أنه لا يتوقع أن يدور بيننا حديث ، وكنت بدوري مشغولا بهواجسى التى تحدثنى بأن هذا اللقاء بينى وبين تو كان لابد أن يتم ، فهو ليس لقاء صدفة ، ولو كان هـذا اللقاء قد تأخر ، لاكتشفت أهميته ، ولسعيت الى تدبيره ، وكنت واثقا انى منطلق مع تو ، ليس فى توصيله الى النادى ، بل الى شيء أعمق واخطر ، ولكني لا ادرى ماهو هذا الشيء ، ولا أستطيع أن اتنبأ به . ولما مضت فترة طويلة من الصمت ، وجدتنى أقول له متخلصا من هواجسى :

ـ ها أنت ترى انى اقود برزانة وتؤدة .. •

قال باسما :

ـ فى الحقيقة .. كنت اسأل نفسى لماذا لا تسرع كعادتك ؟.

قلت فى مرح :

ـ حتى لا تذهب مرة أخرى الى قسم الشرطة .

فاحمر وجهه وسكت ، ورفض أن يعلق بشيء .

فقلت فى الحاح محتفظا بمرحى :

ـ هل تريد أن اهيىء لك فرصة للاحتكاك بهم ؟

اجاب فى خجل :

ـ ولماذا المشاكل ؟

وعاد الى تشاغله بالنظر من النافذة على يمينه . ومضى بعض الوقت حتى اقتربنا من النادى ، فسارعت أسأله :

ـ هل أنت مرتاح لعملك فى النادى ؟

أجاب :

ـ أبدا ..

ـ ولماذا .. هل لديك مشاكل ؟
قال وفي صوته حزن :
ـ أبدا .
وأوقفت السيارة ، وهبطنا ، ومضى خلفي الى الباب ، وماكدنا نعبره ، حتى استأذن واتخذ طريقا آخر الى حجرات النادى ، وتركني وحدى ، لا أدرى ماذا افعل بالمقاعد والمناضد الخالية من الاعضاء . وكان من المستحيل ان اتراجع ، واغادر المكان، فجلست اراقب بعض الخدم يقومون بأعمال النظافة ، ويثرثرون بأصوات عالية حادة ، كانوا قد صمتوا للحظات عند دخولى ، وبدت على وجوههم الدهشة ، ثم عادوا الى عملهم وثرثرتهم . هل انهض وافتش في الحجرات باحثا عن تو ؟.. واقول له : انى أريد أن أحدثك . ولكن فى أى أمر احدثه ، وما الذى أريده منه على وجه التحديد ؟.. ان من أصعب المواقف التى اواجهها ، تلك التى اتورط فيها من خلال انفعالات المشاعر . قد أكون سخيفا الى أقصى حد ، قد اكون ساذجا ابله الى درجة لا تطاق . ومع ذلك فهواجسى تنبئنى أن تورطى مع تو ، إيا كان نوع هذا التورط سوف يؤدى بى الى شيء هام ، وأنه لا معنى للتحفظ الاجتماعى امام هذه المشاعر الملحة التى تنتابنى . وقبل أن اقدم على أى تصرف ، دخل تو القاعة التى اجلس فيها ، ورآنى ، وابتسمت له ، فهز رأسه ، ومضى يخاطب الخدم ، وأنا لا أحول عيني عنه ، ثم التفت الى ، ورايته قادما نحوى . وارتبكت . جاء يسألنى اذا ماكنت أريد فنجان قهوة . قلت له انى اكون اسعد مخلوق فى الدنيا لو حقق لى هذه الامنية ، لولا خجلى من انشغالهم باعمال النظافة وان الوقت يبدو غير مناسب لتلبية مثل هذا الطلب . فصاح تو فى أحد الخدم وطلب منه اعداد القهوة . فهتفت به :
ـ وماذا تشرب انت ؟
ولم أترك له فرصة للاعتذار . وهكذا جلس الى جوارى فى انتظار قهوته السكر زيادة ، وقهوتى السادة . ودفعنى ارتباكى الى محاولة تبرير حضورى المبكر ، قلت له انى مهموم ولدى مشاكل فقال ببراءة مضحكة انه لا يتصور أن رجلا مثلى لديه مشاكل من النوع الذى يثير الهموم . فقلت له برزانة اكثر اضحاكا انه عندما تتقدم به السن سوف يكتشف أن هموم الكبار اشد بكثير من هموم الشباب .
قال بسرعة وحسم :
ـ الا أنا ..

قلت :
ــ الدنيا مازالت امامك ..
قال :
ــ ولكن ليست هذه حياة ..
قلت :
ــ هذا يتوقف عليك .. يجب أن تنتهى اولا من دراستك فى الجامعة ..
قال وكانه يتخلص من كلمات لا تعجبه :
ــ طبعا .. طبعا ..
انى أنتظر انتظار الصائد الذى قد يجلس طوال النهار أو الليل ، فى انتظار سمكة تلتقط الطعم . فكنت أتعمد الذهاب الى النادى مبكرا بين يوم وآخر . حتى أصبح ترددى فى ذلك الوقت أمرا لايثير الدهشة ، وكان تو يرانى ، وقد يشرب معى فنجان قهوة ، ويثرثر معى بأخبار الاعضاء ، وأنا أستمع اليه فى ملل وضيق . لانى عاجز عن توجيه الحديث الى ما أريده ، والادهى من ذلك انى لا أعرف ماهذا الذى اريده . حتى كان صباح اليوم الذى جاءنى فيه تو فى حالة نفسية مضطربة ، كانت فى عينيه نظرة غريبة ، وكان ممسكا فى يده دفتر البريدج . وقد اكتشفت أنه جاء بهذا الدفتر فى يده عن عمد ، وانه يريد أن يسجل عليه شرحا لما يريد أن يتحدث عنه .
قال لى :
ــ أريد ان أستشيرك فى أمر خاص .. هل لديك مانع .. ارجو الا اضايقك .
خفق قلبى ، وتوقد ذهنى ، واصبحت قدرتى على الملاحظة أكثر حدة ، شعرت أن قوة ابصارى قد تضاعفت ، ولم أقو على الكلام من شدة الانفعال ، فهززت راسى مرحبا . ويبدو أن هذا الترحيب الصامت شجعه ، أكثر من اية كلمة انطق بها .
فقال ببطء وبمحاولة ناجحة تماما فى السيطرة على لسانه حتى لا يتلعثم :
ــ لاحظت طبعا انى أتلعثم فى الكلام .. وان من يسمعنى لا يفهم كل ما اقوله .. لانى اذا ارتبكت تحدثت بسرعة غير عادية واختلطت الكلمات فى فمى .. وهذا يضايق من يسمعنى .
هززت رأسى موافقا ، ولم انطق بكلمة .
فمضى يقول وقد زاد رضا بصمتى :

ـ بالامس كان هنا الدكتور الحمزاوى الطبيب النفسى .. كان يلعب البريدج .. وحدث أن وقفت اتحدث معه . فقال لى فجأة : ان هذه اللعثمة قد نشأت ولاشك من صدمات شديدة وأنا صغير .

فتحت أذنى أكثر ، واحتفظت بوجه محايد . وسمعته يقول :
ـ فى الحقيقة .. أنا حياتى صعبة ، وهذه اللعثمة ان تعالج الآن بحل مشاكلى .

أقاطعه صارخا .. كيف يستطيع هو أو مليون مثله حل مشكلة فقدان الاب والتيتم على هذا النحو الذى حدث له .. ومنعت نفسى بصعوبة من اطلاق الصرخة . كان فضولى أقوى من صرختى .. واذا به يضع دفتر البريدج على المنضدة أمامنا . ويخرج قلم حبر جاف من جيب بنطلونه . كانت صفحة تسجيل النتائج مقسمة الى قسمين قسم مكتوب على رأسه « نحن » وقسم مكتوب على رأسه « هم » .. وكتب تو تحت « نحن » شارحا :

ـ هنا حياتى .. والنتيجة صفر ..
ثم كتب تحت « هم » :
ـ هنا الموت .. والنتيجة « جراند سلام » .
وهى اعلى نتيجة يصل اليها فريق فى مباريات البريدج .
والتفت الى وهو يشطب على كلمة « حياتى » سائلا :
ـ لماذا أعيش ؟.. الا اذا كنا نولد لنموت ..
وهنا بدا واضحا انه يريد أن يسمعنى .
كانت نظراته تدعونى الى الكلام .
قلت :
ـ هذا سؤال صعب ياتو .
سألنى فى قلق :
ـ أليست لديك اجابة مقنعة ؟
قلت :
ـ أنا لى رأيى طبعا ..
فسألنى فى لهفة اشبه بالتحدى :
ـ ماهو ؟
قلت :
ـ كنت اتحدث ذات مرة مع الجنرال .. فى هذا الموضوع .. وبلعت ريقى .. وقد فوجئت بقوى مجهولة تكشف عن نفسها

فجاة ، قوى غريبة شرسة لا ادرى من اين جاءت ، وماهى طبيعتها . تحاول أن تفرض نفسها على الحديث . وتريد منى أن اذكر اسم زهدى .. حتى لو استخدمت ذلك اللقب غير المباشر « الجنرال » .

واكملت ومخاوف تتجمع فى نفسى .. مخاوف من نفسى .

— « كنا نتحدث عن ابنه حسن .. الذى هاجر وترك كل شيء .. ان الجنرال غنى كما تعرف ولديه حديقة تدر عليه دخلا سنويا محترما .. قلت له على ما أذكر : انى أعتقد أن الحياة واحدة .. كل البشر حياتهم واحدة ، ولهم روح واحدة .. ولكن لهم أجساد متعددة وأشكال مختلفة . هى نفوسهم التى تضم نصيبها من الحياة الكبيرة .

ورفعت صوتى محاولا أن أشرح له :

— ان الحياة تجرى فى أجسادنا كما يجرى الماء فى الاوانى المستطرقة .. أو كما تجرى المياه فى الدنيا .. مياه البحر فى المحيطات .. ومياه الامطار تصب فى كل مكان .. قد يختلف الاناء .. بحيرة أو ترعة أو بحرا او نهرا .. وقد يختلف الطعم حلوا او مالحا ، ولكنها نفس المياه .

وفجأة دفعتنى تلك القوى الغريبة فى داخلى الى أن أقول :

— قد تكون أنت على صورة أبيك .. نفس الشكل مع تحوير بسيط .. ولكن حياتك هى نفس حياة والدك .. وهى أيضا ..

أضفت بصعوبة :

— هى نفس حياة زهدى ..

هذه المرة نطقت باسم زهدى سافرا .. كان تو يحدق فى وجهى صامتا ، وبدا متشككا فى أهمية ماقوله ، ولكنه فى نفس الوقت بدأ وكأنه يريد أن يسمع المزيد . كان فى تلك اللحظة والقلم فى يده ، أشبه بمن يمتحننى . لا بمن يستشيرنى .

رددت من جديد :

— ان حياتك هى على نحو ما حياة ابيك .

وسكت وقد أرهقنى هذا الخضوع المطلق لتلك الاصوات التى تخرج منى رغما عنى .

ورأيته يهز راسه ويقول :

— لا اظن ..

قلت وقد فقدت تماما سيطرتى على نفسى :

ـ لقد كنت أعرفه ..

نظر الى في غير فهم .. وكنت غير مصدق لنفسى ، فلما عرفت اباه يوما ما ، ولكن هانذا اواصل كلامى :

ـ لقد عرفت الظروف التى عاش فيها ..

وتهدج صوتى مكملا :

ـ وأيضا أعرف كيف مات ..

وهتفت منفعلا :

ـ كان رجلا عظيما .

أوشك ان يقفز هاربا ، أو هكذا خيل آلى ، ولعلى انا الذى كنت اريد أن أهرب من نفسى . كانت راسه تتلفت بسرعة عصبية فى كل اتجاه ، لا بحثا عن شىء ، ولا خوفا من شىء .. ولكنه كان كالمحاصر برؤى قاسية ..

وسمعته يقول وأنا انظر بعيدا لا أريد أن أواجه عينيه :

ـ وما هى عظمته .. وقد تركنى على هذه الحال .

قالها بسرعة ولعثمة ، مع كلمات كثيرة لم اتبينها .

قلت :

ـ يكفى أنه مات من اجل مبدأ يؤمن بأنه يسعد البشر .

قال وهو ينقر بالقلم بقوة على دفتر البريدج :

ـ ومالى أنا وكل العالم .. هل ترانى سعيدا ؟

أجبت بحدة :

ـ أنت تتحدث بلغة الجنرال ..

قال تو :

ـ عنده حق ..

قلت ساخرا وأنا أواجهه متغلبا على مخاوفى :

ـ لا تكن جاهلا مثله .

قال :

ـ وما الذى فعله والدى بموته ؟

قلت :

ـ ترك من بعده معنى .

قاطعنى :

ـ أى معنى .. هل هناك شىء أكلته او شربته ؟..

قلت :

ـ على الاقل تعلمته ..

صاح :
ــ متى .. انا لم اتعلم منه شيئا على الاطــلاق .. كل أوراقه اخذوها .. كل صوره . لا توجد له صورة واحدة فى بيتنا . لا كبيرة ولا صغيرة .. لا شيء بقى .. كانوا يهاجمون البيت .. فيمــزقون المراتب وينبشون القطن .. ويحطمون المقاعد . ويتحول بيتنــا الى انقاض .. هل يرضى اب ان يعرض أولاده الى هذا ؟
قلت :
ــ هذا أهون مما يتعرضون له فى انسانيتهم اذا استسلموا ..
صاح :
ــ ما الذى تريده .. ان اموت مثله فى السجن ؟.
قلت :
ــ لا .. ليس هذا ما اريده ..
فقاطعنى وهو يتذكر :
ــ لقد مررت على جميع دور الصحف والمجلات أطلب مجموعاتهم القديمة التى صدرت أيام موته .. كنت اريد أن أقرأ ما كتبوه عنه .. لم اجد شيئا على الاطلاق .. لم اصدق .. حتى أنى جننت ، ذهبت الى دار الكتب ، واعدت طلب نفس الصحف والمجلات .. الاهرام ، الاخبار ، الجمهورية ، روزاليوسف ، آخر ساعة ، المصور .. كان تلك النسخ التى تحتفظ بها دار الكتب سيكون فيها ما أريد وطبعا .. كانت هى هى .. ولم أجد شيئا .. حتى أنى شتمت الموظف هناك .
قاطعته :
ــ مثل رجال الشرطة الذين تتشاجر معهم ..
قال فى انفعال شديد وبسرعة يصعب ملاحقتها :
ــ نعم .. انا لا احتملهم .. لن أنسى هجماتهم علينا .. وكتبى الممزقة .. حتى حقيبة المدرسة سرقوها .. هل تصدق ؟ انهم كانوا يفتشون الملابس الداخلية لامى . قمصان النوم والكيلوتات .. هل تصدق .. فما المعنى الذى تقول انه تركه بموته لقد خرب بيتنا .
قلت :
ــ اكد .. بموته ان فى الحياة أشياء تستحق أن نمــوت من اجلها .
واختطفت دفتر البريدج من امامه واختطفت القلم من يده .. وقلت مشيرا الى ماكتب : هنا تكتب انت أن الحياة تساوى صفر ..

وان الموت يساوى كل شيء .. وهذا خطا .. الحياة تساوى كل شيء حتى لو دفعت الموت ثمنا لها .. لان الموت ليس عقبة امام الحياة .

قال وكأنه تلميذ يناقش تلميذا آخر فى مسألة حساب .

ــ معنى هذا أن الحياة هى الموت ..

قلت :

ــ نعم .. بمعنى انك كلما شعرت بالحياة أكثر ، كان تعرضك للموت أكثر . ذروة الحياة ، هى الحدود الفاصلة بينها وبين الموت .. وكما قلت لك ــ الذى يموت هو بعض أجسادنا .. هو بعض أشكالنا .. بعض نفوسنا .. أما الحياة فباقية فى ملايين الملايين من البشر الاحياء الان . أو الذين سيولدون غدا والى ماشاء الله .

سكت برهة ثم واجهنى بسؤال بسيط حاسم :

ــ وماذا افعل ؟

هتفت :

ــ حاول ان تفهم ..

قال :

ــ أو انتحر ..

قلت فى هدوء متعمد :

ــ هذا أمر لا قيمة له ..

وهنا هجم على تو بعض الاعضاء ، ينادونه أن يأتى لهم بأوراق اللعب ، فذهب اليهم ، وانتظرته ، ولكنى فوجئت به يجلس ويشاركهم لعب البريدج .

كنت مرهقا .. ولم اعد أحتمل المكان . وكنت قد اعتــــدت الانصراف بمجرد حضور زبائن الصباح . وكانت صلتى قد انقطعت تماما بمعارفى فى النادى الذين يأتون عادة فى المساء . حتى زهدى كنت لا اسأل عنه ، ولا أهتم بأخباره . وكان تو يقول لى أحيانا انه سأل عنى ، وانه دهش عندما علم أني لا احضر الى النادى الا فى الصباح الباكر . وابلغنى أكثر من مرة أن زهدى يطلب ان يرانى . والان أشعر بأن تهربى منه ، كان بسبب تلك القوى التى تنشط فى عقلى ولا استطيع ان اسيطر عليها .. انها تقاوم بخطة مدبرة ، ان ألتقى بزهدى . وهى التى دفعتنى الى اتهامه بالخجل أمام تو .. ومن يدرى فقد تطلب منى اشياء اخرى ، أكاد اشعر أنها ستدفعنى دفعا الى الايقاع بين زهدى وتو . هل انا شرير الى هذا الحد .. أأكون قد جننت .

خرجت من النادى ، وسرت فى الشوارع هائما .. اتفرج على الفترينات فلا ارى غير زهدى وتو ووالده المقتول .. وجلست فى محل حلوى بشارع صلاح سالم ، واكلت قطعتين من الجاتوه بشهية وخطر لى أن اذهب الى مقهى الشطرنج ، ولكنى لم أجد الفكرة مستساغة ، وفضلت أن أقضى الوقت فى مراقبة زبائن المكان ، أغلبهم من العشاق الذين يجمعهم عشق برىء ، خطيبة تضع يدها على المائدة لتلامسها يد خطيبها ، والنظرات بينهما حالمة ولكنها مرهفة ، وعلى الموائد الاخرى بنات السوق . لعلهن تحت امرة منيرة بيجو ، يتفاهمن مع الزبائن والجرسونات ، وينظرن حولهن ، وكأن المحل هو بيتهن الخاص . وشربت القهوة باللبن ، وشربت كازوزة ، وأخيرا قمت ، أتسكع من جديد ، حتى وقفت أمام باب سينما من دور الدرجة الثانية أو الثالثة ، تعرض فيلما من أفلام الكراتيه . قتل ووحشية ودماء .. وانتابتنى رغبة ملحة أن أدخل الفيلم فى حفلة بعد الظهر . وجلست فى الظلام بين شباب أغلبهم من عمال الجراجات والميناء ، أشاهد بالالوان الاجساد تمزق بضربات اليد ، والعيون تفقأ بالاصابع التى تخترقها ، والدماء تنبثق من الافواه ، والصيحات الوحشية تزأر بين القتلة والمتصارعين . وخرجت وقد ذهب النهار ، وجاء الليل ومعه أضواء الكهرباء ، كان ارهاقى يدفعنى الى العودة الى البيت ، واكتشفت أنى نسيت أين تركت سيارتى ، فذهبت ابحث عنها حائرا ، حتى وجدتها كما تركتها فى الصباح بالقرب من النادى ، ووقفت برهة مترددا ، افكر فى الصعود الى النادى ، أو فى الحقيقة الصعود الى « تو » .. ولكن ما الذى اريده منه بالضبط .. وهنا سمعت تلك الهواجس المخيفة تدق بعنف فى اعماقى معلنة فى سفور عن هدفها ، أنت تريد أن يعلم تو من الذى قتل والده ؟.. أنت تريد من تو أن ينتقم لابيه ، أنت تريد من تو أن يقتل اللواء زهدى .

ان أى واحد منا يكون عرضة لاغرب وأبشع الهواجس ، والطفل الذى يغار من أبيه قد يفكر فى قتله كما يقول فرويد ، ولكنه لا يفعلها .. والولد قد تنتابه خواطر جنسية نحو أمه .. ولكنه ردع نفسه ، ان أى شىء ، أى خاطر من أى نوع ، قد يخطر بالبال ، وقد يشغل العقل ، الزوجة الشريفة قد تفكر فى الخيانة . للحظة ، ثم تتنبه الى فساد الخاطر وتطرده . كل خاطر محتمل ، ولكن ليس كل تصرف بمعقول .

كنت أقود سيارتى هاربا من النادى ، ومن تو ، ومن خواطر الكراتيه المفزعة ، والتى لاتليق برجل فى مثل عمرى ، أن لم يكن فى مثل ثقافتى . فما فائدة أن يقتل تو ، اللواء زهدى لينتقم لابيه ، هذا معنى بدائى ساذج لن يؤدى الا الى ضياع تو ، ولن يكون ضياعه بسبب مبدأ أو من أجل عقيدة ، ولن يترك بضياعه معنى يستفيد منه البشر ، سيكون ضياعا فى جريمة قتل .. حماقة وشر ولا اكثر من هذا .. ان قتل اللواء زهدى لن يصلح البلد ، ولن يحقق العدالة .. ان الامر يحتاج الى عمل ضخم ، يقوم به آلاف ثم ملايين الناس ممن يؤمنون به .. اذن ماالذى جلب هذه الخواطر السوداء الى رأسى ايكون العجز الذى أشعر به عن قدرتى فى مقاومة الظلم واعمال القسوة والارهاب فتنتابنى هذه الافكار الصبيانية عن القتل والاغتيال ..

كنت فى سريرى أتقلب ، ولا أثر لقرص الفاليوم الذى ابتلعته ، وابتلعت قرصا ثانيا وثالثا ، ولا أدرى متى زارنى النوم .

حاولت أن اعود الى مقهى الشطرنج ، وبذلت جهدا خارقا ، لاجلس الساعات الطوال أراقب اللاعبين ، أو أشارك فى اللعب ، وقد ابتعدت عن اللعب الجاد ، ورحبت بمجموعة من المسنين ، يلعبون الشطرنج لقتل وقت الفراغ ، مستعيدين بعض حيويتهم المفقودة ، بكلمات التحدى والسخرية والشماتة او حتى الشجار الصاخب مع الخصم الذى يلاعبونه .. ولكن عذابى كان كبيرا ، كنت أدرك انى اعتقل نفسى فى ذلك المقهى .. وكان لابد أن تأتى اللحظة التى أثور فيها على هذا الاعتقال ، فأذهب الى النادى واخترت أن يكون الوقت مساء حتى لا ألتقى وحدى بتو .

وما كدت أدخل ، حتى علمت ان اللواء زهدى قد أصابته ذبحة صدرية تهدد حياته بالخطر . وفى نفس الليلة ، علمت أن تو ، يقضى الليل فى بيت زهدى .. بينما تلازمه فى الصباح ممرضات يشرفن على تمريضه .

كان تو ، يلعب البريدج ، ولم يتبادل معى كلمة واحدة ، حتى جاءت الساعة الثامنة والنصف ، فنهض ، واتجه الينا ، ولما رآنى قال لى باسما :

ـ انا ابلغ زهدى بك كل ليلة سؤالك عنه .

واستأذن منصرفا ، وما كاد يبتعد ، حتى قفزت من مقعدى ، وأسرعت ألحق به .

استوقفته قائلا :

ـ ترى ماهو الميعاد المناسب لزيارته ؟

قال :

ـ الزيارة ممنوعة ..

سألته :

ـ هل حالته خطرة ؟

قال :

ـ الحالة احسن .. كل يوم يمر يبعد بنا عن الخطر ..

اخرجت من جيبى ورقة كتبت فيها رقم تليفون منزلى . واعطيته له طالبا منه ان يتصل بى فى اية لحظة من الليل اذا احتاج الى .

واذ بى اساله :

ـ هل انت حزين من اجله ؟

قال فى براءة :

ـ طبعا ..

قلت كالمجنون وأنا اتظاهر بالحكمة :

ـ لا تفسد شبابك بالحزن على العجائز أمثالى .. اعلم ياتو .. ان اللواء زهدى هو الذى قتل والدك فى السجن .

اطرق برأسه وقال هامسا :

ـ أعرف هذا .

نظرت اليه احاول أن أفهم ، ونظر الى محاولا أن يفهم ، ولم يفصح لى ، ولم افصح له ، واستدار هابطا الدرج فى طريقه الى بيت اللواء زهدى .

قلت لنفسى : انه سوف يقتله ، ثم قلت : لو فعلها سأكون انا قاتله ..

الفصل الأخير

كانت جنازة اللواء زهدى بسيطة وقورة ، وهم فى الاسكندرية لا يشيعون الجنازات بالسير وراء النعوش ، يكتفون بالصلاة على الجثة فى المسجد بعد ان يستمع المعزون الى بعض آيات الذكر الحكيم ، ثم تخرج الجثة بعد الصلاة الى عربة تنتظرها خارج ساحة المسجد ، ووقف أهل زهدى واغلبهم جاء بملابسه الريفية ليصافحهم المعزون وينصرفوا ، لم يكن هناك من يبكى بين الرجال ، ولعل حسن لو كان موجودا لبكى ، وحضر اغلب اعضاء النادى هذا الوداع الاخير ، وبعدها انصرفوا الى النادى ، وأوقفوا لعب البريدج تلك الليلة حدادا على روح المرحوم . ولكن البار استمر فى تقديم المشروبات الروحية . وكان أهم مادار فى حديث الاعضاء فى السهرة ، هو الاستفسار عن حسن ، ومن ارسل له يبلغه ، وهل يجدر بالاعضاء ان يرسلوا له برقيات التعزية ، وماهو عنوانه فى كندا ، أم الافضل الانتظار لانه لابد قادم ليباشر أمور ميراثه .

وماذا يكون مصير الارض لو لم يحضر حسن . وكنت معهم استمع بشغف الى كل التفاصيل ، أما تو فكان قد تركنا . ولم يقل الى اين هو ذاهب ، وقد يكون قد ذهب الى منيرة بيجو ، فالمسكينة كانت شديدة الحزن على وفاة زهدى ، وكان تأثرها واضحا ، وهى التى شهدت أول نوبة للمرض ، ولعلها أقامت بدورها ليلة حداد فامتنعت عن العمل تلك الليلة مثلما منعوا البريدج فى النادى .

وكان هناك أمر مثير آخر ، فبين الذى جاءوا الى النادى بعد الجنازة . السفير شكرى منصور ، وكان يدخل النادى لاول مرة منذ ان قاطعه بعد حادث اصطدامه بابنه يسرى ، وقد انهالت عليه عبارات الترحيب من كل جانب ، وكان حادث حضوره ، منافسا قويا لحادث تشييع جنازة الجنرال . وسالونى اكثر من مرة ، كيف مات زهدى ، فكنت اجيب واجما وانا احرك يدى فى الهواء :

ـ هذا أمر الله .

كانوا يريدون مني التفاصيل ، ولكني ضننت بها ، وكل ماعرفوه مني ، هو اني استخدمت سيارتي السريعة في احضار الطبيب ، ولكنه وصل بعد فوات الاوان ، فيردد الواحد بعد الاخر ، ما الذي يستطيع ان يفعله الطبيب عندما تحين الساعة . وقال شكري منصور متحسرا ، ان زهدي أخطأ عندما فاجأته النوبة ، كان راكبا سيارته ، وكان قد وصل بالكاد الى باب عمارته ، ولو كان عاقلا ، لظل مكانه حتى يكتشف احد أمره . وكان لابد أن يحدث هذا بسرعة ولكنه بذل جهدا يستحيل أن يتحمله الكلب المريض ، وهبط من السيارة وسار حتى الباب ، وصعد بضع درجات ، وكل درجة يصعدها كانت تذبح قلبه ، ان آطار الكاوتش عندما يفرغ من الهواء وتسير عليه ولو بضعة أمتار يتمزق ولا يصلح بعد ذلك للاستعمال ، فما بالك بالقلب ، انه من لحم لا من مطاط ، وكل نبضة أقوى من اللازم كانت تهتك صماماته وتتلفه ، ومع ذلك واصل زهدي السير حتى باب منيرة بيجو ودق الجرس ولما فتحت له ، ووجدته يلهث ووجهه أزرق ، خافت . وسندته حتى لا يقع ، ويصيح شكري .. ان الطبيب يأمرك لو جاءتك الذبحة وانت في الطريق أن تجلس مكانك على الرصيف لا تخطو خطوة واحدة ، ومنيرة لا تفهم في الطب ، ولكنها عرفت أن الرجل في حالة خطيرة . قالت ان يده كانت مثلجة .. العرق الغزير يتصبب من جبينه ، وكان يتنفس بصعوبة . وكان يمسك بيدها ويعتصرها بشدة توجعها ، كانت قبضته قوية بشكل غريب ، كادت تحطم يد منيرة ، ولم تكن تعلم أن بعض ماتشعر به ، هي آلام الانقباض التي تعتصر قلب زهدي ، وطلبت منه أن يدخل ويستريح ، ولكنه رفض ، ولعله كان يعرف أنه سيموت ، وخشي أن يموت في بيتها ، كانوا سيقولون أن جنازته خرجت من بيت منيرة بيجو . ولكن من الذي يهتم بهذه الامور أمام الموت ، كان يجب أن يدخل ويرقد فورا ولا يتحرك أبدا من مكانه حتى تنتهي الازمة مهما طالت الاسابيع ، ثلاثة اسابيع على الاقل كان يجب أن يقضيها بلا حراك ، ولكنه استجمع قواه وطلب منها أن تساعده في الصعود الى مسكنه . هل هذا معقول ياناس ، ان موافقة منيرة على طلبه واستسلامها له هو الذي كان فيه القضاء الاخير عليه .

ويسكت شكري لحظة يسترد فيها انفاسه ، ثم يقول :

ـــ أنا قلت لمنيرة انها هي السبب ... قالت لي انها كانت لا تعرف .. وهذه هي أول مرة تواجه فيها مثل هذه الحالة ، ولكن جهلها

وعناد زهدى هما اللذان قتلاه .

وقال سعفان وهو يتلفت حوله :

ــ من حسن حظنا أن رءوف لم يسمع هذا الكلام .

كان رءوف قد انصرف الى بيته بعد الجنازة مباشرة وكان منهارا ، وهو الذى أصيب بالذبحة مرتين وكان فى الايام السابقة على الوفاة يطمئن الاعضاء ، ويؤكد لهم أن زهدى سوف يشفى ، كان يقولها فى يقين ليطمئن نفسه ، وكان يتهم كل الحاضرين بالجهل فى موضوع أمراض القلب ، ويقول أنهم يخلطون بين الذبحة ، واللغط وتلف الصمامات ، وتضخم الاورطى ، وكان يقرأ المجلات الطبية التى تتناول هذه الموضوعات ، ويعرف كل الادوية ، وتأثيرها ، ومدى فاعليتها ، فلم يجرؤ أحد على مناقشته ، ثم تأثروا بكلامه ، فاستسلموا لوهم أن زهدى سوف يشفى وسيعود اليهم ليحيى جلساته المرحة البذيئة .

وكانوا يسألون تو عن اخبار زهدى ، وكان يطمئنهم ، وقبل وفاته بيومين ، قال لهم : انهم يستطيعون زيارته ، فجمعوا انفسهم، وذهبوا لزيارته ، ولم أذهب معهم لانى لم أعلم بنبأ السماح بالزيارة ، وقالوا ان زهدى ، كان ضعيفا ، شاحبا ، ولكنه كان مرحا ، ولم يسلموا من طول لسانه ، وطلب من منيرة أن تصعد وتنضم اليهم ، رقصوا ساعتين لم يكفوا فيهما عن الضحك .. حتى صاح فيهم زهدى :

ــ انتو ياولاد الكلب عاوزين تموتونى من الضحك .

فصاحوا :

ــ عمر الشقى بقى .

فقال متحديا ، انه لن يموت . وانه بمجرد أن يشفى سوف يتزوج ، وذكر ابنه حسن ، وقال انه يفكر فى أن يرسل للولد برقية يطلب منه الحضور .

واختلفوا فى وصف زهدى وهو يتحدث عن ابنه .. قال شكرى أنه كان متأثرا يوشك ان يبكى ، وقال رءوف على ، أنه كان ساخرا يشتم ابنه ، وتحدثوا عن الممرضة التى كانت تقضى ساعات النهار مع زهدى ، وتساءل سعفان فى خبث ، اذا ماكان زهدى مات ، لانه حاول مع الممرضة ، واعترفوا بانها بنت سمراء مسمسمة ، وان الموت على يديها او فى احضانها هو الذ انواع الموت ، وذكروا أن رءوف سأل

تو .. اذا ماكانت تلك الممرضة حقيقية ، أم هى ممرضة مزيفة من بنات منيرة بيجو ، واكد له تو انها ممرضة فى مستشفى المواساة . فاطمانوا تماما الى أن زهدى سوف يشفى حتى فاجاهم الخبر صباح يوم الجنازة . وعرف بعضهم من النادى ، فاتصلوا بالاخرين ، وكان الاهرام لم ينشر النعى . ونشره فى اليوم التالى لتشييع الجنازة ، لان الوفاة حدثت حوالى الرابعة صباحا ، أو قبل ذلك بدقائق . فعندما دخلت على زهدى مع الطبيب كانت الرابعة والربع تقريبا وفحصه واستمع الى نبضات قلبه بالسماعة واذنه ، وشك عينه ورفع ساعديه وخفضهما وجس أصابع وبطن قدميه .. قال انه مات منذ حوالى ربع ساعة ، وكان تو واقفا ، فجعل يخبط بكفه على فخذه الايمن خبطات متتالية شديدة ، وكانت أسنانه تعض على شفتيه ، اما أنا فقد خيل الى أنى فى كابوس ، كان جسد زهدى راقدا على السرير فى بيجاما بنفسجية وأزرار حمراء ، وكان يبدو أصفر من المعتاد ، وراسه مرتفع قليلا ، وعيناه مغمضتان ، وبشرته تميل الى السواد ، والى جانبه كومودينو عليه كميات لا حصر لها من الادوية .. وكان جو الحجرة خانقا رغم أننا كنا فى فبراير والبرد قارس فى الخارج .

وقال لى الطبيب :

ـ آسف .

وبدا عليه الضيق ؛ فقد كان متشككا فى جدوى حضوره فى مثل هذا الوقت المتاخر او المبكر . وخرج الطبيب فتبعه تو ، ولما رآنى أبادر بالخروج معهما سالنى فى دهشة :

ـ أتتركه ؟

قلت :

ـ وما فائدة البقاء ..

قال :

ـ لا أدرى كيف اتصرف .. ساهبط واوقظ الست منيرة .

قلت له وأنا أفكر فى عدم قدرتى على البقاء وحدى مع الجثة :

ـ اوقظها أنا ..

سالنى تو :

ـ اتعرفها ؟

اجبت :

ـ لا ..

قال :

ــ ساهبط انا ..

ثم قال محتدا :

ــ ألم تقل له منذ ساعة أنك تريد البقاء معه .

واصابني الشلل . كان تو كمن يقرأ مافي داخلي ، يعرف خفايا واسرار كل الذى جرى فى اعماقى ، وقبل أن افيق كان قد خرج مع الطبيب ، واغلق على الباب .

لم اجرؤ على العودة الى الحجرة التى يرقد فيها زهدى ميتا ، وذهبت الى نفس المقعد الذى كنت أجلس عليه وانا استمع الى حكاياته التى يرويها ، وقبل ان أجلس عدلت عن رأيى ، وذهبت الى النافذة وفتحتها ، اطل على مدينة الملاهى بمراجيحها والعابها ، ولكن لفحة برد قوية جعلتنى اسارع باغلاق النافذة .. وجلست استريح .

منذ ساعة واحدة كنت هنا فى نفس المكان ، وكان زهدى مازال حيا . والان انتهى كل شىء ، وبقى أن أستريح ، لم أكن حزينا لموته ، وبدا لى أن كل مايحدث حولى ليس حقيقيا ، وانه خيال يدور فى عقلى ، خيال صبيانى مريض ، ولكن الجثة الراقدة فى الغرفة المجاورة كانت تدحض اية محاولة للهروب من الواقع ، ان ذلك الجسد الميت هو الشاهد الحى الذى يواجهنى رغم انى لا اراه . واجلس وبينى وبينه جدار . وتبينت فى تلك اللحظة ، انى عندما عدت من النافذة جلست على المقعد الذى كان زهدى يشغله وهو يروى لى حكاياته . وكدت أقوم . ولكنى شعرت بثقل ، وواصلت جلوسى ، وتثاءبت فى انتظار قدوم تو ومنيرة . لم أكن خائفا ، وكنت أقرب الى البلادة .. ورغم شدة الاحداث ، كنت بعيدا تماما عن الانفعال ، بل مسترخيا كأن شيئا لم يحدث ، أو كأنى أحلم وانا نائم فى سرير وثير ..

كان التليفون قد دق فى بيتى ، وكنت جالسا أقرأ . فمن عادتى ان أواصل السهر فى القراءة أو الكتابة او مراجعة ادوار الشطرنج أو الاستماع الى الموسيقى الكلاسيك حتى الرابعة أو الخامسة صباحا .

لقد اكتسبت عادة السهر من عشرات السنوات التى قضيتها فى اعمال صحفية ، والآن وقد تفرغت للكتابة لازمتنى هذه العادة ، واصبحت جزءا من روتين حياتى ، وعندما سمعت جرس التليفون يدق كانت الساعة حوالى الثالثة ، لم اتردد للحظة واحدة فى الجزم

بان تو هو الذى يطلبنى . رغم انه لم يحدثنى ابدا من قبل ، ولم اتعود أن أتبادل المحادثات التليفونية مع أعضاء النادى ، صلتى بهم لا تعدو اللقاء فى النادى ثم أنساهم وينسوننى ، ولم يحاول زهدى أن يطلبنى فى التليفون ، ولو كان حاول لوجد صعوبة كبيرة فى الحصول على رقم تليفونى فقد احتفظ به سريا ولم أسمح بتسجيله فى دفتر التليفونات ، وانا أعرف عنه الحذر ، كان يقول لى ، أن الذى عرفه أيام عمله فى الشرطة ، يجعله يشك فى الحديث ولو همسا فى أى مكان عام ، ويشك فى أى حديث فى التليفون ، كان يؤكد لى أنه لا يستخدم التليفون الا عند الضرورة ولا يثرثر بأى كلام لا لزوم له ، وان هذه عادة اكتسبها من عمله ، مثلما اكتسبت عادة السهر من عملى .

سمعت صوت تو ملهوفا :

ـ لا مؤاخذة يا أستاذ .. زهدى بك تعبان جدا .

صحت :

ـ ياخبر .. اتصلت بدكتور .

قال :

ـ حاولت ولكنه لا يجيب .. فكرت فى أن عربتك سريعة ، وتستطيع أن تمر عليه اختصارا للوقت ، وتحضره .

قلت :

ـ سأفعل فورا ..

وأعطانى العنوان ، وكتبته ثم قراته عليه ، كان الطبيب يسكن فى شارع الفراعنة ، وقدرت أنى فى أقل من نصف ساعة سأكون مع الطبيب عند زهدى . ووضعت السماعة ، وانطلقت ارتدى ملابس الخروج ، أى ملابس تصادفنى . معتمدا على البالطو الذى يستر كل شىء ، وهبطت الى الجاراج أسفل العمارة . ومن حسن حظى ان سيارتى كانت فى المقدمة ، واحتاج الامر الى زحزحة سيارتين من مكانهما ، ولم انتظر السايس الذى استيقظ يفرك عينيه وقد وجدنى اقوم بالمهمة غير مكترث بوجوده . وانطلقت بالسيارة باقصى سرعة حتى وصلت الى شارع الفراعنة . ودسست يدى فى جيبى لاخرج الورقة التى دونت فيها العنوان فلم أجدها ، وارتبكت ، أوقفت السيارة وفتشت كالمجنون فى كل جيب ، فلم أعثر عليها ، ولم أستطع التفكير ، كل مافعلته ، هو أن انطلقت بالسيارة الى بيت زهدى .

صاح تو :

ـ أين الطبيب ؟
قلت لاهثا :
ـ العنوان .. الورقة ضاعت ..
قال وهو يجرى الى حجرة زهدى :
ـ سأحضره لك .
وتبعته الى الحجرة ، كان زهدى راقدا وقد رفع راسه فوق مخدات عالية ، وكان فى وجهه ألم ، وفى عينيه شبه ذهول ، ولكنه ماكاد يرانى حتى عرفنى فقد تحرك سواد عينيه وابتسم ابتسامة شاحبة .
قلت فى لهفة :
ـ سلامتك .. سياتى الطبيب فورا .
وفجاة سيطرت على تلك الهواجس الغريبة التى كانت تامرنى فاطيع . واذا بى أقول لزهدى وأنا أنظر فى عينيه :
ـ ابقى أنا معك يازهدى .. ويذهب تو ألى الطبيب .
لابد أن نظراتى كانت تحمل اليه معنى كامنا فى نفسى ، اذ كان يحدق فى عينى ، وفجاة ، لمحت شهاب القلق يلمع فى عينيه ، ونظراته تضطرب ، بينما صاح تو :
ـ كيف اذهب أنا ؟
قلت له وأنا أمد يدى بمفاتيح السيارة :
ـ خذ السيارة ..
قال :
ـ لا أعرف كيف أقودها ، سرعاتها خاصة ، وليست لى خبرة بها . .
وهنا حرك زهدى يده متمتما ، ولم أسمعه ، ولكن تو سمعه ، واذا به يصيح :
ـ لا يازهدى بك .. هو الذى يذهب ، سابقى انا .
كان تو حاسما ، ورأيت الخوف يزداد فى عينى زهدى ، وأصابعه المرتعشة فى يده الممتدة نحوى تكاد تدعونى بل تتوسل الى للبقاء ، ولكنى لم التفت اليه .. وصحت :
ـ لا يجب أن نتعطل أكثر من هذا .
وعدت الى سيارتى ، وذهبت الى بيت الطبيب ، وعندما عدنا ، كان زهدى قد فارق الحياة .
فتح الباب ، كان مع تو مفتاح الشقة ، وقال ان منيرة فى حالة

سيئة .. وانها شرعت فى اجراء بعض اتصالات تليفونية ، فى بيوت اقارب لزهدى تعرفهم ، وجلس تو فى مواجهتى ، ورفع عينيه ناظرا الى ، وقال لى بصوت غريب :

ـ أنت الذى قتلته يا أستاذ « قتلته بكلمتين » .

قلت في استرخاء كامل :

ـ أجننت ياتو ..

قال :

ـ أتدرى ما الذى حدث ؟

قاطعته بلهجة اتهام :

ـ كان وحده معك ، وانت الذي اتصلت بى ..

قال تو غير مهتم بما أثيره من اعتراضات :

ـ منذ اللحظة التى قلت له انك تريد البقاء معه وذهابى ، انتابته المخاوف منى ، اتدرى انه حاول النهوض من السرير ليلحق بك ، قام فعلا ، وكلما أقتربت منه ، دفعنى بشدة ، كان مذعورا ذعـرا بشعا ، لم اعرفه فى انسان من قبل ، كأنى عزرائيل ، ولولا أن أزمته شديدة ، لكان هجم علي وحاول قتلي ليتخلص مني ، كأنك قلت له اني سوف اقتله ..

صمت :

ـ مستحيل .. ماهذا التخريف ياتو ؟ !

قال فى تأكيد وحسم لايقبل المناقشة :

ـ اقسم لك أن هذا هو ماحدث .. لم يكترث بالازمة ، ولا بما يعانيه من آلام ، ولم يكترث بكلام الطبيب ، ونهض ، وهو يعلم أنه يقضى على نفسه بأى حركة .. وحاول ان يذهب الى باب الشـقة ويخرج منها .. ولكنه ماكاد يقف على قدميه .. ويمد يده يدفعنى ، حتى انهار ، وارقدته على السرير ، وكان ينظر الى فى فزع . ولم اجد مفرا من الخروج من الحجرة ، وكلما اطللت عليه من البـاب رأيته ينظر فى اتجاهى منكمشا خائفا ، فاختفى ، ثم اعود فاطـل بحذر ، فيلمحنى ، وفى آخر مرة ، صرخ ، ثم شهق .. فصحت فيه من الخارج .. أن يطمئن ، وان الطبيب قادم بسرعة .. وظللت اتحدث ، ثم أطللت برأسى ، فلم اسمع له صوتا ، واقتربت منـه ، فوجدته هامدا ، لا صوت له ، أو شخير او شحير . كان متصلبا .. ومازالت فى عينيه نظرات الفزع ، انها مازالت فى عينيه ، الم تلاحظها عندما فتح الطبيب جفونه ، رأيتها باقية كما هي ، لا اعرف كيف لم

يلاحظها الطبيب ، انها نظرات مخيفة لم أحتملها فأغمضت جفونه ، وعلمت انه مات .

همست :

ــ هذا غريب ..

قال تو في اصرار :

ــ انت السبب ..

همست :

ــ لا داعي للاستمرار في هذا التخريف .

قال :

ــ لقد وضعتني في موقف لا يحتمل .

رفعت صوتي :

ــ أما زلت مصرا ؟

قال تو :

ــ انا واثق مما أقول .. ولكنى لا افهم لماذا ..

والتفت الى والقى بسؤال :

ــ أكنت تريد منى أن أقتله ؟

هتفت فزعا :

ــ مستحيل ــ وما فائدة مثل هذا التصرف الاحمق .

قال تو فجاة :

ــ على اية حال أعدك بأني لن أحدث أحدا في هذا الموضوع .

حاولت أن أفتح فمي ، واقول له .. لن يصدقك احد ، لو اتهمتنى فستدور الاتهامات عليك أنت ، لانك ستفضح نفسك ، وسيعلمون انك ابن الرجل الذى مات على يد زهدى في السجن .. حاولت أن أخيفه ، أو أخدعه ، ولكنى لم أنبس بكلمة .. وبعد لحظات ضربت بيدى على مسند المقعد ونهضت . وغادرت المكان دون أن أقول لتو كلمة واحدة ، ولم يقل لى كلمة واحدة .

هل أنا قاتل زهدى .. هل هذا معقول .. لقد كان الرجل يتوقع أن يدبر له تو شرا ، صارحنى بانه يخشاه ، الم يكن يخشاه ، ألم يقل لى أنه تعلم من مهنته ان يتوقع كل الاحتمالات ولا يستبعد احدا منها ، ما أدرانى أن تو يكذب ، وانه هو الذى انتهز الفرصة وهجم على زهدى وهو يعانى فى أزمة ، وجعل يهزه ويخيفه حتى قتله ، انها جريمة من الصعب اكتشافها ، سيقرر كل أطباء العالم أن الرجل مات بقلبه المريض ، ان رسوم القلب التى أجروها له تؤكد

ان العطب موجود وشديد . وانه قلب لا يصلح .. لقد كان تو ماكرا بما فيه الكفاية ، ألم يحدثنى فى بداية لقائى به عن رغبته فى أن يقول كش مات لخصومه . ومن هم خصومه المباشرون فى هذه الحيـاة غير زهدى وشوكت ، أغلب ظنى أن شوكت لو كان مازال حيا لابد أن يقابل تو فى جنيف أو حيث يكون ليلقى على يديه انتقاما من نوع آخر فريدا فى نوعه .. لا .. لن اسمح لتو أن يهزأ بى ، ويتهمنى بارتكاب الجريمة التى ارتكبها هو . ولكن هل أنا واثق مما أقوله ، أليس من المحتمل أن زهدى هو الذى انهار ، أمام مخاوفه التى كان يستبعدها مرضاة لله . كان يتبنى تو ليرضى الله عن ابنه ، ويفتح أمامه السبل ولكنه وهو يواجه الموت لم يعد يعنيه الا نفسه ، وأحس أن الله يتخلى عنه ، فخاف وهجمت عليه الوساوس كالشياطين الفتاكة فدمرته .. كان يحمل جرثومة هلاكه فى نفسه ، وهى التى قتلته .

ومع ذلك ، فمازالت صيحة تو .. « قتلته بكلمتين » تدوى فى اذنى ، لقد كانت قوى أكبر منى ، تكمن فى أعمـاقى ، هى التى دفعتنى الى أن اعرض على زهدى البقاء معه ، وانظر اليه ، وهو فى قمة ضعفه ، لأقول له انى خائف مما قد يتعرض له من بقائه وحده مع تو .. بل لعلى قلت له بنظراتى وانا لا أعى خطورة ما أقول .. ان سبب ما يعانى من نكسة ، هو تصرفات لتو ، لعله خلط فى الادوية ، أو ارتكب شيئا ضارا به .. لقد حذرته ونبهته الى مخاوفه فى اللحظة التى لا يستطيع أن يدافع فيها عن نفسه ، فانهار ومات أو انتحر .. ولكنى أعود وأسأل نفسى .. هل هذا معقول .. الم يطلبنى تو بنفسه ما الذى دفعه الى مخاطبتى فى التليفون .

عندما اختفى النعش فى السيارة الكبيرة السوداء ، التى ستحمله الى مقره الاخير كان تو يقف بجواره ، كنت لم أره منذ تركته فى فجر اليوم .

نظر الى وقال :

ــ أنا آسف .. لا تزعل منى ..

فمددت يدى وربت على كتفه . ولابد ان من رأونى ظنوا أنى أواسيه فى موت أبيه زهدى ، كان أصغر الموجودين . وكان يصلح لان يبدو فى نظر عابرى الطريق الذين ينظرون الينا فى فضول كابن المتوفى .

وهمست فى اذنه :

ـ كيف عرفت انه قاتل والدك ؟
قال هامسا بدوره :
ـ بعد النوبة الاولى .. اعترف لى .. وبكى ..
سألته :
ـ وماذا فعلت ؟
فلوح بيده ودموع فى عينيه .. وقال :
ـ بكيت ..
وانطلق مبتعدا .. يعبر الطريق فى اتجاه بيت زهدى ألقـريب ن المسجد .
واختفى تو ، بعد الجنازة ، ولم يعد الى النادى ، وانقطعت اخباره لم يحضر ليقبض مكافأته الشهرية .. ورأيته أخيرا ، فى شـارع سفية زغلول . وكنت على الرصيف الاخر .. فناديت عليه بأعلى سوتى .. واكتفى بتحيتى من بعيد .. أشرت له أن يقف . وجـاء سوته معتذرا .. وهو يجرى .
ـ عندى موعد هام فى فندق فلسطين .

تمــت